رواية :
هوى قلبي تونسي
الكاتبة : ايمان
الرياني

مقدمة المؤلف

"كلنا من الوطن وللوطن

فالوطن ليس فقط قطعة جغرافية

تمشي عليها اقدامنا

الوطن هويتنا وكرامتنا

ارثنا....حضارتنا....تراثنا....وموروثنا....

وكل ما نملك...هو وجودنا ووجوديتنا...

فبالوطن وللوطن

نولد ونحيا ونرحل

هو المنفى والملجأ

والمفترق والملتقى

هو الوطن العلي العظيم ....لذا....

فمن الوطن يخطو قلمي

وللوطن اكتب حرفي..."

"لن تنزل الحرية الى الناس ...بل يجب عليهم ان يرفعوا انفسهم اليها...فهي نعمة ينبغي ان نشقى من اجلها قبل ان نتمتع بها"

فيكتور هوغو

-الفصل الاول-

برلين ...سبتمبر 1999

نظرت الى السماء وقد تبددت بالغيوم غطت كتفيها بوشاح الصوف الازرق المحبب لديها لتتدفأ من الرياح الباردة التي غمرت جلدها المجعد فجعلتها ترتعش بردا وقفت تتأمل الرياح الخريفية العاتية في تلك الحديقة التي اصفرت اوراق اشجارها ..جاء من الراديو صوت الفنانة صليحة التي تعشقها تشدي تلك الكلمات الجميلة

"في الغربة فنالي *عمري راح في الغربة فنالي *عمري راح*عالزينات انا ضيعت مالي *عمري راح..."

امسكت حفيدتها بكتفيها وقالت "جدتي عزيزتي اليس البرد شديدا ؟ الا تريدين الدخول؟" "هيا فلندخل" "لماذا تصرين عل البقاء في الحديقة في هذا البرد" جلست بتثاقل قائلة

"احب الجلوس في الحديقة انها تذكرني بأشياء جميلة لا تعرفينها " قالت سوسن بحماس "قولي لي لماذا تحبين الحديقة كثيرا؟ ما البسر في ذلك؟"

قالت مبتسمة "ارأيت شجرة الياسمين تالك التي في الزاوية اليمنى من الحديقة؟" قالت "اجل اراها"

"انها من عرف من شجرة الياسمين التي في بيتي العتيق في تونس انني اقف في الحديقة دائما لاتأمل تلك الشجرة واتذكر اياما جميلة عشتها ...كنت اصنع فيها طوقا من الياسمين البسه لصديقتي وحبيبتي رباب ثم نمضي المساء سويا ونحن نحتسي القهوة المعطرة بالزهر ونتبادل الضحكات والاحاديث الطويلة قرب نافورة المياه تحت تلك الشجرة وسط الدار ..حقا ليت الزمان يعود يوم."

انت تتحدثين دوما عن حياتك في تونس وبيتك العتيق وحيك القديم الذي سكنته في ""المدينة العربي" ولم تحكي لي شيئا عن حياتك في ذلك الوقت لماذا؟" "ربما لانني اذا حاولت الحديث عن ذلك الوقت والزمن الجميل في حياتي لا اجد الكلمات التي تصف تلك الفترة جيدا بحوزتي او ربما لانني اذا تحدثت لا احد سيفهم او ربما لانني اريد ان اخفي ذلك ...تعلمين ...الاشياء الجميلة الت يفي اعماقنا نريدها ان تبقى دائما بحوزتنا وان نخفيها عن الجميع كي تبقى خاصتنا فوحدنا من يعرف قيمتها ووحدنا من يدرك الذكريات التي تجمعنا بها ..لذا فلا نحدث عنها احدا لانها ملكنا لوحدنا...انها سعادتنا ننحن فقط لا غير ..." "احترم اسرارك يا جدتي لكنني لم اعد صغيرة الان لقد اضحى عمري عشرين عاما صدقيني سأحفظ سرك ان حدثتني بذلك ولن اخبر احدا سافهمك جيدا صدقيني"

قالت رقية مبتسمة"عزيزتي ليست المشكلة في عمرك بل انك لن تفهمي طعم تلك الحياة الجميلة العطرة ما دمت لم تعيشيها" "حسنا حدثيني عنها علني افهم نكهتها واشعر بها" "ان الحياة في تونس يا ابنتي لها نكهة الحياة في الجنة" "اذا حدثيني عن الجنة"

...

تونس 8افريل1938

غادر سي عمر مع ابنه الطاهر مكتب البريد وكانا يتبادلان اطراف الحديث في الطريق الى البيت ..قال سي عمر"هاقد قام الحزب الدستوري الجديد بخطوة جيدة اخيرا عبر سحبه الثقة من الحكومة الفرنسية واعلانه عن استعداده للكفاح في المؤتمر الوطني الاخير الذي عقده" "اجل يا ابي انها خطوة هامة لكن هل للتونسيين اليوم ان يقوموا لكفاح مسلح ضد القوات الفرنسية القوية؟" "ومن اخبرك ان الكفاح سيكون مسلحا؟" ""وماذا اذا؟" "لن يكون كذلك انما سيعود الكفاح الوطني السياسي كما كان على ايام الثعالبي في العشرينات" "حقا؟ ليت ذلك يحصل فعلا ولا يكون مجرد كلام يوهمنا به السياسيون" "لا انه ليس كذلك الدستوريون يعملون على تنظيم مظاهرة كبرى غدا سيطالبون فيها بانشاء حكومة ومجلس امة واخلاء سبيل المعتقلين ستكون مظاهرة كبرى سنقهر بها الفرنسيين."

1938/4/9

بعد المظاهرة الدامية في ساحة القصبة انسحبت الدبابات الفرنسية من المكان تاركة خلفها جثث قتلاها الجنود وجثث الشهداء التونسيين لمناضلين ملقاة ارضا بينما تهافت بقية المتظاهرين اللذين تم تفريقهم لاخذ تلك الجثث الى عائلات اصحابها كي يشيعوهم ويدفنوهم في الجلاز في المكان الذي اخذت فيه القبور الشهداء تتزايد وتتنامى يوما بعد يوم والتي يضم ترابها جثمان النساء والاطفال والشيوخ والوطنيين والمتظاهرين وكلهم لسبب واحد...قمع الاستعمار.

اخذ يركض جارا قدمه المصابة برصاصة جندي فرنسي بصعوبة وألم متجها نحو بيتها في نهج الباشا

متخفيا من الجنود الفرنسيين اللذين يجوبون انهج المدينة العتيقة معتقلين كل متظاهر هارب من قبضتهم

دخلا الى نهج الباشا واخذ يقترب من البيت لاهثا وكلما تقدم زاد المه واشتد نزيفه وسالت دماءه اكثر فأكثر اخذ يطرق الباب بسرعة فنادت: "ها انا قادمة ما بكم؟ما هذا الطرق الشديد ؟ من هذا؟ لحظة واحدة سآتي ..من؟ مصطفى؟ يا ويلي ماذا حصل لك ؟"

"رقية ارجوك دعيني ادخل بسرعة " "مابك؟ ماذا حصل لك؟ ماذا اصاب قدمك؟"

"لقد اصبت برصاصة جندي فرنسي في قدمي اثناء المظاهرة يارقية لم ارغب في العودة الى بيتي لان امي واخوتي سيخافون علي ويرتعدون لرؤيتي على هذه الحال "

"حسنا ادخل يا عزيزي ادخل"

هل بامكانك ان تقتلعي الرصاصة من داخل قدمي يا رقية؟"

"ماذا؟ انا اقتلع لك الرصاصة ؟صحيح انني عملت ممرضة سابقا لكن.."

"لكن لا شيء مخيف يا رقية ارجوك اقتلعيها بسرعة لم اعد احتمل هذا الالم"

"حسنا ساحاول لحظة لاتي باغراض الاسعاف والتمريض"

اتت بالصندوق وفتحته واخذت تقتلع الرصاصة بعد ان شقت الجرح وهو يتأوه وجعا وهي تقول له"سلامتك سيا حبيبي سلامتك ليت هذا الالم لي ! لاسامحه الله هذا الجندي اللعين الذي اصابك فليكسر الرب يده على ما فعله بك اريد ان افهم كيف حصل لك هذا؟"

لقد كانت المواجهات محتدمة والمتظاهرون غاضبون كثيرا لتدهور الوضع كانوا مصرين على مواصلة المظاهرة ورفع شعاراتهم دون تراجع فتلقى هؤلاء الانجاس الاوامر كي يجابهوا المتظاهرين بالرصاص الحي ويلتجئوا الى القتل ..لقد سقط العديد من خيرة الشباب الوطنيين شهداء وجرحى تم توزيعهم على المستشفيات ..هناك من فقد اعضاءه وهناك من فقد بصره وهناك من فتح كتفه بالرصاص"

"لعنهم الله يال دناءتهم.لو حصل لكل شيء ماذا كان سيجري لي يانور عيني؟ كنت سأموت حسرة بلا شك"

سلامتك يا حبيبتي من الموت لا تقولي هذا سأحيا لاجلك لا تخافي لم يكتب الله لي امن اكون من الشهداء اليوم"

"وكل يوم باذن الله لن تكون يا عزيزي ولن تموت ستبقى لي وبجانبي دوما..لكن لماذا جئت الي ولم تذهب الى المستشفى؟ لقد سمعت ان "عزيزة عثمانة" قد ارتاده عدة جرحى ومصابين للتداوي"

"لم افكر في ذلك فكرت فيك لا غير...منذ لحظة اصابتي شعرت انني بمجيئي الى هنا سأرتاح وااسترجع قواي "

"هاهي الرصاصة يا عزيزي لقد اقتلعتها بنجاح ساضمد لك الجرح الان...الحمد لله ان الاصابة ليست خطيرة لقد دخلت في اللحم والعظم والعصب بخير والا ماكنت لاقدر على مساعدتك بنفسي عليم كالا تمشي كثيرا عليها او تتعبها ابقى في بيتك وخذ قسطا من الراحة هذه الايام ..حرارتك مرتفعة ياعزيزي انتظر بعض الوقت ساحضر اكل حساء لتتناوله قبل العودة الى البيت مارأيك ان تعود في المساء كي لا يراك احد؟"

وماذا عن زوجك؟"

"زوجي في جربة ذهب لزيارة احد الاصدقاء هناك وانا كالعادة بمفردي في البيت لا احد يؤنسني عدا هذا الجرو الصغير "فيليب" ارأيت ما ألطفه؟"

"اجل لطيف"

بعد وقت قصير اتت له بالحساء وجلست قبالته:"هيا يا عزيزي عليك ان تتناول هذا الحساء لتقوم بخير وتتقوى وتقاوم الجرح الذي ينزف في قدمك"

"سلمت يداك"

والان اريدك ان تحكي لي عما حصل في الخارج بالتفصيل اتعلم ان اصوات الرصاص كانت تصلني الى بيتي هنا؟ صدقني خفت كثيرا ودعوت لك لم افكر في احد الاك ..بماذا طالبتم؟"

"كانت مطالبنا واضحة ...تحرير الدستوريين المعتقلين...تشكيل حكومة وطنية بقيادة برلمان تونسي..كان هدفنا الضغط على الفرنسيين كي يجلسوا الى طاولة الحوار والتفاوض ويستمعوا الينا..تمسكنا بمواصلة المظاهرة التي سرعانما جوبهت من قبل السلطات المحتلة بالدبابات وطلق الرصاص وبدأت المنواجهات ..كانت الخسائر كبيرة في صفوفنا دون انا يسقط منهم جندي واحد..لعنهم الله يالهم من انجاس !يقاتلون اناسا بلا سلاح يرموننا بالرصاص ونحن لا نمتلك شيئا بأيدينا عدا لافتات وشعارات اخ لو يتركونني افعل بهم ما يتبادر الى ذهني لعلمتهم الرجولة هؤلاء المائعون"

"رحم الله الشهداء هل كام من حيينا شهداء ايضا؟"

"اغلب رجال حينا اصيبوا بجروح متفاوتة لكن سقط شباب في عمر الزهور من اماكن مختلفة ..لقد شملت المظاهرة كل ابناء المدينة من باب سعدون وباب سويقة وباب العسل وباب الخضراء ومن الملاسين وباب الجزيرة وباب الجديد وباب منارة وحي المر ومن كل الاحياء المحيطة بنا"

"اخاف ان يزداد حنق السلطات الفرنسية وحقدها على التونسيين فتزيد في ممارساتها التعسفية ضد شعبنا اكثر من ذي قبل"

"لن يفعلوا شيئا طالما نحن لهم بالمرصاد ومادمنا ملتفين حول قياداتنا الوطنية التي تنظم صفوفنا وتدعم نضالنا بكافة اشكاله"

"فلينصر الله الحزب الدستوري وليحرر معتقلينا قريبا"

"امين سيتحررون بعون الله ولو كان ذلك بالقوة كم هو لذيذ هذا الحساء ! اخ قدمي تؤلمني علي الا اسمح لامي برؤية هذه الضمادة والا فلن تسمح لي بمغادرة البيت "

"معها حق اطمئن سيطيب الجرح قريبا باذن الله سلامتك يا حبيبي"

في مستشفى عزيزة عثمانة..

كانت كل الغرف تعج بالمصابين والمجروحين والحالات الاستعجالية التي ستخضع لعمليات وكان الممرضون يركضون جيئة لاسعاف الحالات الخطيرة قال عمر:

"ايتها الممرضة ارجوك تعالي وخذي هذا الجريح حالته خطيرة لقد تلقى رصاصة في بطنه وعلهي الخضوع لعملية جراحية"

"حسنا خذوه على السرير لقاعة العمليات وسخروا كل الجراحين للحالات المماثلة ما به ابنك يا سي عمر؟"

"لقد تلقى رصاصة في ذراعه اليسرى ارجوك اقتلعي له الرصاصة"

"حسنا اذهب مع الدكتور محمود وماذا عنك يا سي مختار؟"

"لقد اصبت في قدمي يا ابنتي قدمي اليمنى لم اعد امشي عليها ...يا ويلي لو علمت زوجتي ستخاف كثيرا علي"

"دكتور سامح ارجوك تعال"

بعد دقائق غادر المجروحون المستشفى بعد تلقيهم الاسعافات اللازمة وبقيت الحالات الخطيرة في اقسام العمليات

في المساء جهز نفسه ليغادر البيت ...ضمته وقالت له:"لا تتأخر علي"

قال: اطمئني سأزورك قريبا

"انتبه الى نفسك حماك الله"

غادر البيت واغلق الباب متخفيا بينما ذهبت هي لترتيب السرير فاذا بها تسمع صوت الباب يفتح..ذهبت لترى من يكون..فدخل اسحاق زوجها نازعا قبعته السوداء من على رأسه سألته متعجبة

"اسحاق؟ هل اتيت من جربة؟ حمدا للرب على سلامتك."

"اجل لقد جلبت لك بعض المخللات من صديقي شمعون وزوجته مرغريت تبعث لك بالسلام والتحية"

"حقا؟ شكرا ..كيف هم الاصدقاء في جربة؟"

انهم بخير وكيف انت؟"

"اسئلني كيف هي العاصمة اليوم أسمعت ماذا فعلت القوات الفرنسية بالمتظاهرين اليوم صباحا؟"

"اجل سمعت من اهل الحي.العاصمة كلها تتحدث عن المظاهرة

"لقد كانت السلطات الفرنسية دنيئة جدا معهم ماذا فعلوا حتى تواجههم بالدبابات والرصاص الحي؟ هم لم يطلبوا عدا حقوقا مروعة ولم يكن بحوزتهم اكثر من لافتات لشعارات يكررونتها "

"انها لم تفعل بهم الا ما يستحقون"

"ما يستحقون؟ لانهم ارادوا ان يجدوا لانفسهم مكانا في وطنهم مع هذا المحتل؟"

"رقية.ليس الاحتلال كما تسمينه انت بهذه البشاعة.لا تنسي فضل سلطات الحماية على هذه البلاد قبل ان تخل فرنسا هذه الارض هل كان هنالك مؤسسات؟ هل كان هناك مستشفيات؟ مدارس مدنية...وزارات..بريد...قباضة...بنوك...طرقات...سكك حديدية..سيارات..وغيرها...لماذا تتعاطفين مع عصمة من المتمردين اللذين يخربون وطنهم بايديهم بدعوى المقاومة والنضال وهم يكنون الحقد والكره لاناس طوروا لهم بلدهم ونهضوا لهم بحالهم الذي كان في الحضيض ونفضوا عن وجوههم الغبار...لا فائدة..ان العرب لاناس ناكرون للمعروف كارهون للاعتراف بالجميل لغيرهم."

"كيف تقول هذا يا اسحاق؟ اهم من يخربون بلدهم ام الاستعمار الذي يسمي نفسه نظام الحماية؟ الم يكونوا في سلام قبل ان ياتي اليهم هذا المستعمر ليقتلهم ويشردهم ويسرق ارضهم ويوطن فيها كمواطنيه بغير حق؟"

"يكفي يا رقية كل هذا لا يعنيني انها قضية وطن ليس وطننا !"

ولماذا نقطنه اذا لم يكن وطننا؟ ما الذي اتى بنا الى مكان ليس لنا بوطن؟ هلا افهمتني؟"

"اتستفزينني كالعادة لاجل ان تقولي لي انك لن تغادري تونس؟ حسنا فهمتك لا داعي لتكررري لي ذلك لكن تذكري هذه الجملة جيدا..حتى لو كنت لا تصدقين فان اليهود سوف يأتي عليهم يوم ليجتمعوا من جميع اصقاع العالم في وطن قومي يجمعهم جميعا وسيعيشون فيه ككل امة لها حكومة ودولة وارض ومقدسات !وعد بلفور لن يذهب سدى...سنذهب يوما ما الى ارض الميعاد التي وعدنا الرب بها في التوراة وسترين ذلك بأم العين"

"ستذهب بمفردك لانني لن اترك وطني الذي ولدت وعشت فيه...وطني هو تونس ...تونس لاغير !

في ليلة ذلك اليوم كان رجال الحي مجتمعين في مقهى الشواشين ككل ليلة

قال مختار"المظاهرة التي خرجت اليوم جعلت الفرنسيين يعيدون حساباتهم الف مرة قبل مواجهة المتظاهرين التونسيين تخيلوا يا جماعة المتظاهرون كانوا يواجهون جنود الاستعمار بلا سلاح كانوا يدا واحدة الى درجة ان الجنود المسلحين هابوهم وانسحبوا"

رد عليه المنصف" الجنود الفرنسيون لم يهابوهم يا مختار انهم لا يهابون شيئا ولم يرحلوا عن الساحة الا بعد الحاق خسائر كبيرة في صفوف المناضلين وايقاع عدد كبير من الشهداء ولم ينسحبوا الا بعد ما رأوا غضب المتظاهرين الذي تفاقم مع رؤيته للعدد الكبير الذي سقط من اللشهداء والخاسر الوحيد هوالحركة الوطنية التي فقدت خيرة شبابها ومناضليها..قال الصحبي صاحب المقهى "كيف تقول هذا يا منصف.؟هل نضالنا هذا خسارة؟ كلام مختار على صواب لقد هابنا وتخوف من غضبنا العسكر الاستعماري حتى اضطر الى مغادرة المكان وايقاف اللطلق الناري تحت ضغط المتظاهرين وبفضل صمودهم يدا واحدة

قال مختار: صحيح وهذا ما سيجعل السلطات الفرنسية تنظر في مطالبنا وتعمل على تحقيقها لانها تعرف ان لديها شعب غاضب لن يصثمت عغن حقه ولن يواصل في الرضا بهذا الوضع"

قال عمر: لا اظن ان المظاهرات والشعارات كافية لتدفع سلطات الحمياة للنظر في مطالبنا وحقوقونا علينا ان نتمسك بقياداتنا الوطنية اللذين يسهرون على التفاوض مع الفرنسيين فهم من سيجلب لنا حقوقنا ويضغط على الفرنسيين كي يستمعوا لمطالبنا ويستجيبوا لها

قال المنصف:هذا هو عين الكلام ...قياداتنا هي املنا وخاب من قال غير هذا...هيا فلنلعب النرد"

-الفصل 2-

في القيروان

يوم 1938/4/10 فجرا..

قررت رباب مغادرة القيروان باتجاه تونس بعد ما ذاقته من عطذاب واحتقار واهانة من اخيها وزوجته

بعد ان مرت عليها ليلة مريرة لم تنم طوالها بينما اخاها وزوجته في السرير يغمرهما نوم عميق ..جهزت صرا من الثياب وضعت فيه صندوق ذهب من حلي امها وابر الصوف وكراته ثم غادرت البيت فجرا باتجاه المقبرة..جلست الى قبر والدتها وابيها واخذت تبكيهما وتشتكي لهما ثم قالت: "اسفة يا والداي اعلم انكما لا تقبلان ذهابي لكنني لم اعد اقدر على العيش بهذه الطريقة لانني اموت الف مرة كل يوم انا ساغادر هذا البيت وهذه المدينة التي كرهتها سأذهب الى العاصمة وساعمل الى ان اجمع المال واحيا حياة اخرى غير هذه تماما ادعوا لي يا عزيزاي احبكما ولن انساكما في امان الله سأتلو الفاتحة كل ليلة لروحكما"

ثم ركبت تاكسي باتجاه سوسة والخوف والحزن يغمر قلبها ..غادرت القيروان سائرة نحو المجهول لا تعرف مصيرها وما سيلاقيها ولا حتى اين ستنام ليلا والى اين ستركن من برد الليل ..ظلت واجمة محجدقة في الزجاج متأملة الطريق تسأل نفسها عشرات الاسئلة عن مصثيرها بعد الذهاب الى مكان لا تعرف غيه احدا وليس لها فيه احد...ظلت تدعو الله وتطلب الرحمة والفرج طوال الطريق ...لحظة توقف التاكسي العطته النقود وقالت "تفضل هذا كل مالدي" ثم نزلت راكضة لتقل قطار سوسة نحو العاصمة بعد ما يقارب ساعتين وصلت الى المدينة المرجوة ..توقف قلبها برهة لحظة وقوف القطار مسترجعة قواها وثقتها بالله...

نزلت متثاقلة و"الحايك" يغطي جسمها ووجهها كاملين...واخذت تتأمل المدينة التي لا تشبه مدينتها في شيء ...هنا في العاصمة...اين الجنود الفرنسيون في كل مكان بدباباتهم وسياراتهم العسكرية والنساء الغربيات اللاتي لا يكلفن انفسهن ارتداء الطويل من الثياب للاحتشام او التستر ..هنا قاعات السينما والمسارح وبائعو الصحف والمدارس الفرنسية والبنايات الطويلة والنزل والحدائق والسيارات الكثيرة والكنائس والاسواق التي تعج بصراخ البائعين وتهافت المشترين.

اخذت تسأل الناس والبائعين عن الطريق الى المدينة العتيقة ثم وصلت الى باب بحر وذهبت الى "سوق البركة" سألت الناس عن دكان "سي عمر الشلبي" ثم طرقت بابه في استحياء رفع رأسه قائلا"تفضلي ادخلي يا اختي" قالت كمرحبا" قال "اهلا بك اجلسي هل لي ان اخدمك بشيء" قالت"انا قدمت من القيروان" قال "اهلا بك وبكل اهالي قيروواننا العزيز" قالت"اعزك الله.. في الحقيقة اعرف انك تعرف جيدا القيروان وتأتي اليها دوما وخاصة الى العم حسن بائع الاقمشة في الدكان المحاذي لجامع عقبة بن نافع " قال "حسن؟ اجل طبعا انه صديقي وذهبت اليه مرات عديدة"قالت "اظن انك تذكر اننا التقينا قبل هذا اليس كذلك قال "في الحقيقة لا اذكر جيدا متى كان هذاقالت "عنمدما اتيت انا لاعطي اعمالي اليدوية التي ااصنعها من الصوف الى السيد حسن كي يبيعها ويعطيني ثمنها كالعادة...كنت النت عنده في احدى المرات وقلت لي شغلك من الصوف جميل جدا واشتريت مني البضاعة كلها واعطيتني ثمنها وقلت لي اذا اتيت عندنا واشتغلت في العاصمة ستصبحين من اكبر بائعي الصوف في المدينة" قال "اجل تذكرت"

قالت "ثم قلت لي انا عمر الشلبي صائغ في البركة أي سوق الذهب في المدينة البعربي في العاصمة "قال"ماشاء الله ذاكرتك قوية تذكرت ذلك..هل لي ان اخدمك في شيء؟" قالت "في الحقيقة لم اعد ارغب في البقاء في القيروان بسبب كساد السوق لم ابع بضاعتي منذ ايام ...لم يعد احد يرغب في شراء كنزات الصوف مع فقدوم الربيع والصيف على الابواب ...اردت لامجيء الى العاصمة علني اعيش هنا وتساعدني حضرتك على بيع هذه البضاعة لم يعد احد يرغب في التعامل معي خهناك فآثرت المجيء الى تونس فالسوق هنا اوسع واكبر" قال"على الرحب طبعا يا اختي يسعدتني ذلك" قالت "سأكتري هنا بيتا ارجوك ان كنت تعرف بيتا فارغا دلني عليه وكل شهر سأعطيك ثمن سكني فيه لتسلمه الى صاحبه ان تمكنت من بيع بضاعتي كطبعا" "حسنا يا سيدة...؟" "انا رباب" قال "حسنا يارباب امهليني بعض الوقت غدا باذن الله سيكون مفتاح البتي لديك وبامكانك ان تسكني فيه براحتك وتعتبريه على ملكك حتى لو تتمكني من دفع ثمن الكراء في احد الاشهر سأدفعه عنك" قالت" شكرا لك لكن كماذا عن هذه الليلة اين سأنام ؟ ليس هناك احد لي اعرفه هنا في تونس؟ ارجوك ساعدني"

قال "لاتخافي لنا جارة هنا في نهج الباشا امرأة يهودية تعيش بمفردها متزوجة لكن زوجها في السفر دائما...سآخذك عندها لتنامي الليلة ...بيتها رحب وفيه غرف عديدة ..مؤكد انها ستفرح برؤيتك" قالت "يهودية؟" "قال "نعم يهودية لا تخافي النها طيبة جدا ستكتشفين ذلك بنفسك" قالت"حسنا"

ثم اخذها الى البيت بعد ان ترك صانعه في الدكان

...

كان اسحاق في البيت يجهز حقيبته للسفر الى ايطاليا ورقية تتأمله عند باب الغرفة:"ستتركني بمفردي مجددا البارحة اتيت واليوم ستسافر من جديد" قال "ماذا افعل؟ هل الامر بيدي؟ هكذا يتطلب عمليب...سفرا متواصلا" "وفقك الرب" قال "شكرا عزيزتي" ثم حمل الحقيبة وتاجه نحو الباب وفتحه بينما رفع السيد عمر بيده لطرق الباب ورباب واقفة خلفه في استحياء ووجهها مغطى ب"الحايك"

قال اسحاق"سي عمر؟ اهلا بك...اهلا وسهلا كيف حالك؟" قال "الحمدلله وانت ماأخبارك؟ لماذا لا نرالك يا رجل؟ على ما يبدو انك مسافر؟" اجل والله عمل ومشاغل كالعادة كما تعرف التجارةتستوجب سفرا وتنقلا كثيرا" قغال "اجل معك حق هل السيدة رقية هنا؟" قال "انها في الداخل الى اللقاء سيد عمر فرصة سعيدة" قال عمر" في امان الله هيا ادخلي سيدة رباب"

دخل ونادى رقية فقالت "من؟ سي عمر؟ تفضل ادخل"

قال"اهلا رقية كيف حالك اليوم؟"

"نشكر الرب تفضل اجلس"

"لا انني على عجلة شكرا لك لم اعرفك على رباب فتاة قيروانية ستؤنسك في بيتك"

مرحبا رباب تشرفنا" اقتربت منها وقبلتها وهي صامتة في ذهول قال عمر" انها قادمة للتو من القيروان وهي تعمل في حياكة الصوف وتبيعه تريد منزللا هنا في المدينة وغدا باذن الله ستستلم مفتاحه لكنت هل لك من فضلك ان تقبليها عندك اليوم لتبيت في بيتك الليلة حتى صباح الغد" قالت بفرح"طبعا على الرحب والسعة يسعدني ذلك كما تعلم زوجي مسافر اليوم وسأبقى لوحدي في البيت"

"اذا لا داعي لاقلق عليها"

"اطمئن يا سي عمر سأهتم بها جيدا الى ان تعود غدا وتعطيها مفتاح البيت ...هيا ياارباب تصرفي براحة واعتبري بيتي بيتك الذي على ملكك انزعي عنك هذا السفساري"

قالت "لا لا استطيع"

قال عمر "حسنا سأترككما الان لدي عمل كثير وتركت صانعي في الدكان في امان الله"

"في حماية الله ياسي عمر اهلا وسهلا بك في بيتي يا رباب هات عنك هذا السفساري"

"انه ليس سفساري انه "الحايك" ..."

"حسنا هات عنك هذا "الحايك" وغيري ثوبك ساعطيك ثوبا للمنزل "فوطة" و"بلوزة" و"مريول فضيلة" من ثيابي لتلبسيهم.

"شكرا لك سيدة رقية.

"سيدة؟ ماهذه الكلمة؟ انا رقية فقط ..ناديني رقية واعتبريني اختا لك انا في هذا البيت وفي هذه الدنيا كلها بمفردي ليس لدي اخت او اخ ووالداي متوفيان ليس لي احد عدا زوجي التي رأيته امام الباب قبل قليل سأسر ببقائمك معي كثيرا حمدا للرب ان بعث لي من يؤنسني في وحدتي"

اتى جرو رقية الصغير واخذ في النباح فخافت رباب ضحكت رقية وقالت""لاتخافي يا عزيزتي لم اعرفك على فيليب هو مؤنسي الوحيد في هذا البيت أرأيت ما ألطفه؟"قالت بخوف "اجل لطيف"قالت رقية "هيا البسي ثيابك سنحضر سنحضر سويا الفطور في المطبخ وسأطبخ ملوخية احتفالا بمجيئك يا ضيفتي العزيزة " اخذت رباب تتثاءب وقالت"يراودني نعاس شديد لم انم طوال الليل هل لي بقسط من الراحة.؟" "اجل طبعا عزيزتي هل رأيت الغربة المقابلة؟ انها غرفتك ارتاحي فيها ونامي قليلا حين يحضر الفطور ساوقظك " قالت "شكرا"

...

في الليل جلسا سويا يشربان عصير الفراولة البارد

قالت رقية:"عزيزتي رباب اشعر ان قصة ما وراء تركك القيروان ومجيئك الى العاصمة احكي لي ماسر مجيئك الى هنا؟"

اخذت رباب تبكي فاستغربت رقية ووضعت يدها على كتفها قائلة:"عزيزتي مابك؟ لماذا تبكين؟ احكي لي ما قصتك؟ لا تخافي شيئا لن اخبر احدا اهدئي يا عزيزتي"

مسحت رباب دموعها قائلة :"لم اغادر مدينتي بارادتي لقد اتيت من هناك هربا من اخي وزوجته وظلمهما لي لقد اتخذا مني جارية لهما اخدمهما بلا مقابال مع العذاب والذل وبذيء الكلام الذي اسمعه من كلاهما كل يوم انا ابيع الصوف وهما يأخذان اموالي التي اتلقاها من تعبي وشقائي لمك اعد احتمل ذلك فهربت فجرا وهما نائمان اتيت الى هنا وانا لا اعرف احدا عدا رجلا يدعى "سي عمر الشلبي" عرفته من مجيئه عدة مرات الى العم حسن بائع القماش في حينا حين رأيته هناك مرة وقال لي اذا اتيت

الى العاصمة سيشتري منك العديدون اعمالك الجميلة لان الناس هنا كثيروا العديد ليس كما هناك في القيروان...احمد الله انني وجد دكانه وتحدثت اليه كي يساعدني على العمل والسكن هنا كم هو رجل شهم وطيب القلب" قالت رقية "معك حق ...هذا افضل ما فعلت لا ترضي بالذل يا عزيزتي انت انسانة وليس من حق احد اذلالك وضربك مهما كانت قرابته بك"قالت رباب" كانا يأخذان اموالي مدعيان انهما يريدان صرفها لصالحي ولصالح البيت وهما يمنعانها عني" قالت" فهمتك معك حق اطمئني الناس هنا طيبون سيحبونك وستتعرفين اليهم بسهولة لقد احسنت صنعا باستعانتك بسي عمر انه شهم وكريم وطيب القلب ولا يرجع احدا طلب مساعدته خائبا"

-الفصل 3-

كان الصباح..استنيقظت رباب فغيرت ثوبها وغادرت الغرفة منادية رقية فلم تجدها في البيت اتجهت الى المطبخ لتحضر القهوة فسمعت صوت رقية تدخل الى البيت اتت الى المطبخ وقالت مبتسمة "صباح الخير رباب عزيزتي هل استيقظت؟"

قالت" صباح النور سيدة رقية " "ماهذه سيدة؟الم اقل لك البارحة لا تناديني سيدة رقية انا رقية فقط اعتبريني صديقتك او اختا لك هل تنادين اختك بسيدة؟" قالت رباب"حسنا رقية" "هكذا افضل تجهزين القهوة؟هذا جيد لقد جلبت معي الفطائر لنتناولها بالسكر سأحضر الطاولة في "الوسطية" الطقس جميل جدا اليوم" "اجل صحيح هل لديك قارورة من الزهر؟" "اجل هاهي في الخزانة" وضعت رباب فنجانين معطرين بيالزهر في طبق واخذتهما الى الطاولة في وسط البيت التطقت رقية بضعة زهرات من شجرة الياسمين ووضعتها على الصحن بجانب كل فنجان وزقالت مبتسمة "اليست هكذا اجمل؟" "اجل ذوقك جميل" "اتعلمين؟ لقد سررت بقضاء الليلة الماضية معك سأبقى لوحدي عندما تذهبين الى بيتك" طرق الباب فقالت رباب"مؤكد انه السيد عمر قد اتى ليسلمني مفتاح بيتي سأفتح له" قالت رقية "ابقي انت سأفتحج انا اهلا سيد عمر تفضل" "شكرا سيدتي لقد اتيت لاسلم لرباب مفتاح بيتها الجديد وكي تذهب معي الى بيتها لتعرف طريقه حتى تأتي اليك في المرة القادمة بسهولة""هذا جيد لماذا تقف في السقيفة تفضل بالدخول"

دخل الى باحة البيت فخرجت رباب من غرفتها مرتدية الحايك والخامة وفي يدها الصر وقالت له"اهلا سيدي عمر انا جاهزة للذهاب معك" "جيد هيا فلنذهب" قالت رقية"سي عمر لم تخبرني اين هو بيت رباب الجديدي؟" قال "انه في بير الحجار سيعجبك كثيرا يارباب انه بيت فخم وواسع ويحوي بيوتا كثيرة" قالت رباب هذلا يعني ان كراءه باهض لقد قلت لك اريد بيتا صغيرا وليس فيه غرف كثيرة" قال "رباب قلت لك ال تقلقي من ناحية ثمن كراءه ساساعدك ان لم تقدري على تسديده لا تفكري في هذا الامر" "لا اريدك ان تساعدني اريد ان ادفع ثمنه بنفسي وبتعبي ومالي" "رباب عزيزتي لا تفكري بهذه الطريقة سي عمر لايقصد شيئا عدا مساعدتك" قال" تماما شكرا لمك سيدة رقية حقا هذا ما اردت قوله ان احتجت شيئا لن ابخل ابدا عليك" قالت رقية"هيا يا عزيزتي رباب ابتسمي انك كسبت بيتا في المدينة العربي على ملكك ولك بمفردك ستسكنين فيه وتكونين ملكة عليه لكن احذري ان تنسيني سأزورك دوما

وستبادبليننني الزيارة هل سمعتني؟ وكلما احتجت شيئا تعالي وقولي لي ذلك دون خجل غدا ستصبحين من نساء هذه المدينة وستتعرفين الى الجارات وستصبحين سيدة معروفة وصديقة للجميع.مبارك لك هذا البيت " قالت رباب "شكرا لك حبيبتي رقية" قال عمر"ارى انكما اصبحتما صديقتان في ليلة واحدة هذه لبداية جيدة" قالت رباب" حقا ان السيدة رقية طيبة جدا" قالت" وانت كذلك عزيزتي هذا من لطفك وحسن اخلاقك انتبه اليها يا سي عمر" قال "على عيني رباب اليس لديك حقيبة؟ " قالت "لا انني لا امتلك عدا هذا الصر" قال" حسنا سأشتري لك واحدة شكرا يا رقية على فتح بيتك لرباب وقبولها تمنى الا نكون قد ازعجناك " "بالعكس لقد اسعدني هذا كثيرا" "على الرحب بيتي مفتوح لكل الطيبين امثالكم"

غادرا المنزل تاركين اياها وحيدة كمجددا جلست على النافورة حزينة مفكرة في حبيبها مصطفى ثم رفعت رأسها الى السكماء داعية "فليشفيكم الرب يا عزيزتي حتى تعود لي وتثلج صدري برؤيتك"

بعد يومين

كانت بصددد تجميل نفشسها عندما سمعت طرقا من الباب وضعتة قلم الكحل وذهبت لتفتح الباب قالت بصوت ناعم"من الطارق؟" قال "افتحي لقد طبت واتيت اليك سريعا" فتحت الباب مدهوشة وحين جدخل ضمته بقوة وقالت"غير معقول اتعلم ؟شعرت بمجيئك اليوم فتعطرت وتجملت وكان شعوري في محله كيف هي قدمك يا عزيزي هل طبت؟"

قال"عدت كما كنت وافضل لا تقلقي علي مارأيك ان تلبسي ثيابا جميلة ونذهب سويا الى حديقة ساحة باستور لنتنزه قليلا ونرفه عن انفسنا كم اشتقتك !"

"فكرة جيدة دقيقة وساكون جاهزة هل تريد قهوة؟"

"لا سنشربها سويا في مقهى بلفيدير اسرعي"

اخذا يتنزهان في حديقة باستور ثم ا جلسا سويا في مقهى بلفيدير الذي يعج بالمعمرين الفرنسيين

قال لها"علينا الا نتأخؤر غدا صابحا ساذهب الى بيت سي عمر سيقوم الوطنيون بعقد اجتماع فيها"

قالت بصوت خافت "مؤكد ان اجتماعكم سري كالعادة"

قال "نعم كالعادة فمنذ احداث افريل الماضي اصبح الوطنيون يصرون على سرية نشاطهم"

"حقا؟ لم اسمع بذلك"

قال "اسمعت بالجمعيات الثقافيةة والمنظمات الوطنية التي انشأت حديثا ككشافة تونس والهلال الاحمر اضافة الى الصحف كصحيفة الشباب وافريقيا الفتاة؟"

قالت"بلى سمعت لقد اشتريت عددا من صحيفة الشباب الخميس الماضي انني سعيدة جدا بانتعاشة النشاط الوطني هذا يعني ان دماء شهداء احداث افريل لم تذهب سدى "

"لا تقلقي عزيزتي لم ولن تذهب دماء ابنائنا سدى غدا ستجدين الجنود الفرنسيين منكسين رؤوسهم يغادرون ارضنا بلا سلاح وعتاد مجردين من كل شيء ليعودوا الى بلادهم مذلولين وسط افراحنا ونشوة حريتنا"

"فليجعل الله هذا اليوم قريبا"

"امين"

"سنخرج يومها سويا ونرتدي علم بلادنا ونشرب نخب تحررنا"

"اجل سنجوب الشوارع كلها رافعين علمنا في ذلك اليوم سننكس كل الاعلام ويبقى العلم التونسي وحده مرفرفا وسنمزق كل الاعلام الفرنسية ونحرقها"

"وسننشد النشيد الوطني التونسي بلا خوف"

"ولن نرى بعد ذلك دبابات وسيارات الجيش الفرنسي"

"متى ستأتي هذه اللحظة ونعيشها ياعزيزي كم اشتاق لرؤية وطني حرا"

ستأتي يا عزيزتي لن تتأخر ابدا..كوني على ثقة ..هيا قومي سريعا قبل ان يسمعنا احدهم فيوشي بنا الى الفرنسيين فيعتقلوننا "

"هيا فلنذهب"

قالت لحفيدتها "وقفنا وقتها واخذنا بالضحك والركض حتى غادرنا المقهى ثم عدنا مشيا الى نهج الباشا مرهقين منتشين بالضحك والركض في الشوارع بين المعمرين اللذين كنا نشتمهم دون ان يفهموا كلمة مما كنا نقول ...كنت كلما خرجت معه في نزهة ارتدجي السفساري لاتخفى من عيون اهل المدينة وكان علينا دوما التنزه خارج النهج التي فيها اناس يعرفوننا...كنا نقتفي اثر الحب بعيدا عن اعين المتربصين بنا ...كمانت جريمة ان اعشق رجلا ليس من ديني وكان جرما ان يحب امرأة يهودية لكن كنا مصرين رغم ذلك ان نبقى سويا كما كنا سويا في طفولتنا نلعب في الحي دون ان نحسب حسابا لاي اختلاف بيننا...كنت اتنكر ملتحفة مغطية وجهي بالخامة كي ابدو مسلمة ثم انزع ذلك الثوب بعد مغادرة "المدينة العربي" وابرز زينتي كما شئت ..لم نكن نخاف شيئا عدا ان يرانا احدهم ممن يعرفوننا سويا وحمدا للرب ان ذلك لم يحصل ولو لمرة واحدة"

"هل كان يبادلك نفس الحب الذي تخبينه له في قلبك يا جدتي؟"

"اجل كان يحبني كثيرا اكثر من زوجي ومن كل من يعرفونني...لا احد منهم كان يهتم لامري مثله..وحده من كان يقول لي جميل الكلام ويلبي كل طلباتي ويأخذني اينما شئت"

"وهل علمت رباب صديقتك بأمره؟"

"اجل كنت انا من اخبرها بذلك ذات مرة"

-الفصل4-

سبتمبر 1938

انتهى الصيف...كان البرد شديدا وكانت رقية مع صديقتها رباب في غرفة الجلوس امام "الكانون" المشتعل يشاهدان هطول المطر الذي بلل زجاج النافذة خلفهما...كانت رباب تحيك كنزة صوف منت اللون الاحمر ..وضعت رقية صحن الموسيقى واخذ يتعالى صوت "حبيبة مسيكة" في اغنيتها "نقطع التنهيدة" قال رقية :

"اليس الحب جميلا؟" اجابت رباب بخجل"الحب؟ ياويلي وهل جربته حتى اخبرك عنه؟ نحن في القيروان عيب علينا ان نقول هذه الكلمة اتمام احدهم" "اطمئني الامر ليس عندكم في القيراون فقط هنا في العاصمة ايضا الناس لايمارسون الحب ولا ينطقون هذه الكلمة ابدا" قالت"في الحقيقة الناس هنا متفتحون وكل شيء عندهم عادي النساء يخرجن بلا سفساري" قالت رقية "لا هؤلاء النساء الفرنسيات زوجات المقيمين الفرنسيين فقط..اما المرأة التونسيية محتشمة وخجولة الا ترين انهن لا يغادرن بيوتهن دون ارتداء السفساري؟" قالت رباب" اجل" قالت لها رقية بحماس"لاتغيري الموضوع الان.هيا قولي لي الا تحبين احدهم هنا في حينا.؟" قالت"وهل اتيت الى هنا لاعشق رجلا؟ انني اتيت هنا لاعمل واجد لقمة العيش بعيدا عن ويلات اخي وزوجته" "يكفيني حديثا عن اخيك وزوجته قولي لبي الا تشعرين بشيء تجاه سي عمر؟" "ماذا اتقولين رقية؟ هل احب رجلا متزوجا ولنفترض انني اخطأت وفعلت هل سيفكر هو في ذلك؟انه سيد وقور ومحترم ومن اكابر المدسينة العتيقة والكل يعرفه انه اشهر صائغي البركة.صدقيني ليس بيننا شيء عدا التجارة"

"ولو ألأنه متزوج يعني انه عليه النظر لزوجته فقط وليس من حقه النظر لامرأة او الوقوع في حبها ؟ الشرع الاسلامي حلل اربعة نساء بامكانه الزواج منك كزوجة ثانية وشرعية هكذا سمعت من احد شيوخ الزيتونة في احدى المرات"

"ربما"

"هل سمعت ماذا قلت؟ ربما يعني انك تريدين ذلك"

"انا اريد رجلا "ولد حلال" كي يسترني ويسعدني ويشد عضدي بوجوده بجانبي لكن ان يكون "سي عمر" امر مستحيل الوقوع اليست فتون ابنته صديقتك وانت تهدينها الكتب دوما؟"

"اجل اعرف عائلته جيدا لديه ابن اسمه الطاهر يعمل في دكان شاشية مع سي مختار هنا في نهج الشواشين وزابنتانتن كبيرتان متزوجتان واحدة في المرسى والاخرى في مونفلوري سحر ونادية عائلته طيبة جدا ولو ان زوجته خديجة صعبة المراس قليلا الا انها طيبة القلب وحنونة"

"اتركينا من الحب الان اتعلمين لم اصنع هذه الكنزة؟"

"لمن؟"

"انها لك ستلبسينها عندما اكملها انت بيضاء البشرة وستكون مناسبة لك جدا بلونها الاحمر الجميل"

"شكرا جزيلا عزيزتي لكنت هل ستبيعينهالي؟"

ضحكت وقالت"وهل جننت؟ انها هدية.لطالما حلمت ان يكون لي اخت او صديقة وها انت صديقتي الوحيدة التي بامكاني ان اهديها شيئا من حياكتي الخاصة"

"حقا سأكون سعيجدة جدا ها نحن على ابواب الخريف تبارك الله انها تهطل بغزارة مرفوقة بالرعد والبرق كان الله بعون كل ضعيف يكتسي الارض في الشارع في هذا البرد والبلل"

"امين"

"ما اجمل المطر والدفئ امام الكانون والجلوس مع صوت حبيبة مسيكة انها غسالة النوادر تأخرت هذه السنة وهطلت في سبتمبر"

"اللهم اجعلها خيرا لسقاية المحصول والزرع"

"امين"

"رباب"

"نعم؟"

"اريد اخبارك سرا عديني الا تخبري به احدا صدقيني ان سمع احد من فمك بهذا السر فيمكن ان يتسبب ذلمك في موتي او موت احدهم ان الامر خطير جدا وسري للغاية ارجوك عديني الا تخبري احدا به"

"لا تخافي ثقي بي اعدك الا اخبر احدا ثم من اعرف انا في هذه المدينة حتى اخبره بسرك؟تكلمي"

"انا على علاقة برجل"

"اعرف انك متزوجة لماذا تخبرينني بذلك الان"

"لا لم تفهميني لم اقصد زوجي اسحاق انا على علاقة برجل مسلم من هنا من المدينة"

"ماذا؟لارجل؟رجل مسلم؟ رجل وليس زوجك اسحاق؟ كيف ذلك؟"

"انا على علافة برجل مسلم يدعى مصطفى "

"مصطفى؟"

"اجل انه من سوق اللفة"

"وكيف تعرفت اليه؟"

"كنت في الثامنة من عمري"

وضعت رباب ابر الصوف على جنب واستوت في جلستها لتستمع الى القصة جيدا...قالت رقية

"كنت في الثامنة من عمري عندما تزوجت خالتي الصغرى الاخت الوحيدة لامي رحمها الله اتى لحضور عرس خالتي مع والدته وكان يقول "انا لا احب اعراس النساء يا اماه دعيني اذهب الى ابي في المقهى لاجلس مع الرجال لا اريد الجلوس مع النساء" وبقي يكرر ذلك طوال السهرة وكنت انا انظر اليه باستاغراب ...كان في العاشرة من عمره ...وقعت عيناه علي فجأة فابتسمت له كان ينظر لي نظزرة

طفل تقع عيناه لاول مرة على فتاة...بقينا طوال السهرة نراقب بعضنا البعض وكأننا نتكلم صمتا...منذ تلك الليلة اصبحت اذا رأيته في الحي ذهبت لاحدثه والعب واياه سويا حتى كبرنا واصبح كنز اسرايري والشخص الوحيد الذي لا اخفي عنه شيئا الى ان قرر والدي يوما ما اتزويجي من رجل من ملتي كطبعا اتباعا للاعراف والتقاليد ...لقد كان اسحاق ابن عمي في ربيع عمره ويبحث عن زوجة ولان والدته كانت تحبني اقنتع عمي ان يجيء ويطلبني من ابي كنت وقتها ابنة ستة عشر عاما تزوجته وهو في الرابعة والعشرين لم اكن احبه ولا كنت قريبة منه ...كنت اخافه ولا ارغب به ولا اشتهيه...اجبرت على ذلك وانا الى الان في قفصه"

"وماذا حدث لمصطفى عند سماعه؟"

"ياويلي لقد جن المسكين وفكر في قتل اسحاق لكنني وعدته الا افراقه بالرغم عن وزواجي ةواقسم هو الا يتزوج بامرأة اخرى ما دمت انا حية ومنذ ذلك الوقت اصبحنا نسترق المواعيد العشقية المحرمة علنا نعوض انفسنا عما حرمته ايانا التقاليد والاديان والحياة"

"يال هذا الظلم !الم يكن افضل لو انك هربت مع مصطفى كنت ستكونين اكثر سعادة عما انت عليه الان"

رباب ماهذا الذي تقولينه؟ مثل هذه الاشياء لا تحصل الا في القصص والافلام"

"وماذا عن اسحتق؟ الم تتمكني من حبه؟ وهو؟ الا يحبك؟"

"قطعا لا ...اسحاق رجل اناني لا يجيد شيئا عدا تجارته واعماله وحساباته انه دزوما في السفر يعيش متنقلا من مكان لاخر حتى ولو كانت في تونس لا يعود الا في ساعة ليلية متأخرة بعد ان كان قد قضى سهرة طويلة مع اصدقائه الضباط الفرنسيين او رجال الاعمال والتجار ان قلب اسحاق لا يعرف للحب طريقا وانا تزوجته فقط ارضاء لوالداي واهلي لكنني لم احبه يوما حياتي معه ابشع من الجحيم لم اعش قط يوما سعيدا بجانبه ولا احببت يوما علاقتنا لكن لا حل بيدي"

"كم نحن تعيستين !اننا نتشبه بعضنا البعض"

اجل...حياتي لا تبعد عن حياتك كثيرا ...حزن وتعاسة وقلة حظ...كان الرب في عوننا"

- الفصل 5-

كان "سي عمر" جالسا في دكانه بصدد صناعة خاتم ذهبي بينما طرق باب المحل رجل طويل القامة كبير الحجم ضخم البطن كثيف الشعر طويل الذقن وقال

"هل هذا محل سي عمر الشلبي؟"

رفع "سي عمر" رأسه ناظرا اليه بغرابة "اجل هذا هو تفضل"

قال الرجل "هل انت سي عمر صائغ البركة الشهير؟" قال "اجل انا بعينه هل اخدمك في شيء؟" قال الرجل "اين اختي؟" تساءل عمر "ماذا؟ من اختك؟وانى لي ان اعلم اين هي؟"

قال "اختي رباب اتت من القيروان اليك هنا كي تعمل معك وتبيعك الصوف كي تعطيها البمل لقد مر الصيف كله وانا ابحث عنها في كل مكان لم اترك مكانا واحدا لم اذهب اليه راجيا ان اجدها فيه وحين اخبرت العم حسن بمشكلتي قال لي ابحث عنها في العاصمة علها ذهيت لسي عمر الشلبي كي تعمل معه فهو وعدها بأن بضاعتها ستباع جيدا هناك في المدينة قل لي اين ذهبت باختي؟ اين هي حتى اكسر رأسها على تركها للبيت دون مشورتي هربت فجرا مني كي لا اراها تظن انني لا استطيع الوصول اليها ...كم هي غبية ! لو رايتها ساكسر رأسها"

قال عمر "اهدا يا سيدي ارجوك اهدأ انا لا اسمح لك ان تقول كلمات كهذه عن اختك انها فتاة مهذبة ومصونة

ومن انت حتى لا تسمح لي انا لم آتي لاتحدث واياك انا اتيت لسؤالك اين هيظ قسما بتربة والداي سأكسر قدميها اللتين هربت بهما"

"يا سيد..."

"انا رامي"

"يا سيد رامي ارجوك.هذه السيدة اصبحت زوجتي الان على سنة الله ورسوله وقد اشتريت لها بيتا باسمها وهي تسكن فيه الان دون ان تحتاج للعمل لتأمين قوتها اليومي لانني لن احرمها من شيء ...ارجوك اهدأ ولا تكرر كلاما كهذا على مسامعي لانني لا اسمح لك بالحديث عن زوجتي هكذا"

"ماذا؟ تزوجتها؟ يعني انها اتت للزواج بك ولم تأت للعمل"

"لا مخطئ يا سيد رامي انها اتت لتعمل وتسكن احدى بيوت الحي هنا لوحدها وانا من اقترحت عليها ان اتزوجها كي احميها واصونها من كلام اهل الحي ...تعلم ان الناس لا يتركون امرأة تعيش في بيت لوحدها دون ان يصدروا في حقها شائعات وكلاما مغلوطا ورباب قد اخبرتني بكل شيء فعلته انت وزوجتك بها فإذا كنت قد اتيت لاجل المال الذي تعطيك اياه من أتعابها فانا مستعد كي اعطيك اياه كل شهر وابعث به اليك الى القيروان لكن أن ترى رباب مجددا انسى الامر...رباب لم تعد ترغب في رؤيتك لانها تخافك وهي الان في كلفتي ان اردت مالا اعطيتك ما تريده واكثر والا فعد الى القيروان"

بقي رامي ينظر اليه بحقد ثم قال له "سامحها الله...اتخافني ولا ترغب برؤيتي لانني كنت اغار عليها واخاف على مصلحتها وشرفها...كل ما قالته لك غير صحيح لإأنا لم افعل لها شيئا عدا حمايتها النها اختي الصغرى التي اوصاني بها والداي وعلى كل اشكرك لانك فكرت في صونها وحميت شرفها اما انا فلم يعد لي حاجة بها...وانا لم آتي هنا كي اطلب مالا بل خوفي على اختي هو ما دفعني لاقطع كل هذه المسافة وآتي اليها...والان منع السلامة"

"في امان الله سيد رامي"

...

لم تصدق رباب ما سمعته عندما اخبرها"سي عمر" بالقصة فقالت بفرح:"غير معقول !هل حقا ذهب دون ان يصر على رؤيتي؟ كيف فعلت ذلك ؟ كيف اقنعته؟ انه ذو رأس صلب ومراس صعب وعناد كثير"

قال عمر" لا تقلقي معي انا لا يقدر على العناد"

"حقا اشكرك جزيل الشكر يا سي عمر لن انسى جميلك هذا ما حييت "

"لا شكر على واجب يا رباب لكنني اتيت الى هنا لأتأكد من انك لم توعدي ترغبين برؤيته كما قلت له والا فاذا كنت تريدين ذلك سأبعث بمن يأتي به من القيروان علك اشتقت له"

"لا ارجوك ياسي عمر انا لا ارغب في رؤيته ما حييت لا اريد ان اتذكر وجهه ونظرته لي ارجوك...اريد الابتعاد عنه قدر المستطاع...اتعلم لو انك اتيت به الى بيتي كي يراني اليوم لكنت متت خوفتا ورعبا من ان ابقى واياه سويا في بيت واحد انه لا يجيد الكلام ولا يتقن شيئا عدا الضرب والعنف"

"اذا هذا افضل دعيني الان اعود الى الدكان واذا احتجت شيئا اخبريني بذلك دون استحياء"

جلست على الكرسي قبالة النافورة في وسط الدار وقالت في نفسها"أي رجل انت يا سي عمر لقد حققت لي حلما دون ان اطلب البيك ذلك وكنت قرياب لي لحظة بعد عني كل اقربائي...طوبى لزوجتك برجل مثلك...ترى هل مازال مثلك في زماننا هذا؟ انى لي ان اعرف رجلا شبيها بك يصونني مثلك في زماننا هذا؟ انى لي ان اعرف رجلا شبيها بك يصونني كما صنتني ويقف معي كما وقفت انت؟"

تفطنت فجأة الى ان باب بيتها يطرق فذهبت لفتحه قالت لها رقية

"رباب مابك انني اطرق الباب منذ دقائق لماذا لم تفتحي لي؟"

"اسفة لم اسمعه"

"هل كان سي عمر عندك؟ رأيته عند اخر النهج"

"اجل كان عندي يا رقية لو تعلمين ماذا حصل اليوم صباحا"

"ماذا حصل احكي لي"

"لقد اتى اخي من القيروان ليبحث عني ويعيدني معه الى البيت هناك"

"حقا؟يال المصيبة وماذا حصل بعد ذلك؟

"لقد انقذني منه سي عمر وقال انه تزوجني ولن يعطيني ايه"

"غير معقول..احقا قال له انك صرت زوجته؟"

"انا بدوري صدمت لقد حماني يارقية لقد منعه من ان يأتي الي ويقتلني كان يريد قتلي لهروبي من البيت"

"حقا انه لشهم هذا الرجل"

"لست اصدق نفسي كم انا سعيدة يا رقية لن اراه مجددا لقد تخلصت من شره الى الابد"

"هذا جيد انه صباح الاخبار السارة ...هيا اذهبي وحضري لنا القهوة احتفالا بهذا الخبر الحلو ...مبارك لك حريتك عزيزتي"

"على عيني اجمل فنجان قهوة ولأجمل صديقة في الدنيا"

جلسا يحتسيان القهوة حذو النافورة سوبيا ورقية تقرأ الصحيفة بتمعن قالت لها:

"اسمعي يا رباب كم هو جميل هذا المقال"

"أي مقال؟"

"مقال يدافع عن المرأة فيه كلام للسيدة بشيرة بن مراد

"اقرئيه لي"

"اسمعي:ان المرأة التونسية تطورت وسمت افكارها وصارت تراقب سير الامور وهي تستحسن وتستهجن وتمدح وتذم وتفهم حالة البلاد من كل نواحيها وتشارك في المجتمعات الخيرية والاجتماعية والعلمية واني لمسرورة بكل ذلك وقد اسمع احيانا بعض ما يقلقني مثل الاعراض عن الزواج ونحو ذلك واني ادعو قومنا للعمل بحب وكد في سبيل التعليم وازالة العقبات من وجه الفتاة التونسية وترك الاحاديث والتشمير عن ساعد الجد في سبيل الاعمال المفيدة" البشيرة بن مراد في 1938/11/20 من صحيفة تونس الفتاة" انمه مقال قديم منذ شهرين تقريبا ما اجمل هذه الكلمات"

"من تكون بشيرة بن مراد يا رقية؟

"انها مؤسسة الاتحاد النسائي الاسلامي التونسي في ديسمبر 1936برفقة مجموعة من النساء المناضلات أي منذ ثلاث سنوات تقريبا "

"وماهذا الاتحاد؟"

"انها جمعية نسائية تطالب بحقوق المراة واستردادها لكرامتها واعطائها حق النضال والمساهمة في تحرير بلادها اعرف مقر هذه الجمعية جيدا اسمعي ما رأيك ان تغيري ثوبك وترافقيني في الذهاب الى هناك ...سنجد النساء هناك يناقشن المسائل الوطنية وكل ما يخص المرأة"

"حقا؟. الان؟لكن هل هناك مشكلة اذا لبست الحايك وغطيت وجهي؟"

"طبعا لا عزيزتي لبسته ام لم تلبسيه لا مشكلة انهن يقبلن النساء جميعا عضوات معهن بكل اشكالهن وبمختلف اعمارهن ثم بامكانك ان تنزعيه هناك فالمقر فيه نساء لا غير"

"هل يعقل ان نصبح عضوات في الاتحاد معهن؟"

"اجل ولم لا ما الذي ينقص كلينا؟

"لكن هل نحارب شيوخنا الزيتونيين؟"

"لا يا عزيزتي نحن لن نحاربهم ...نحن نستهجن افكارهم البالية لاغير "

ذهبت رقية برفقة رباب الى الاتحاد النسائي الاسلامي

دخلتا ذلك البيت العتيق من باب صغير منقوش بالمسامير السوداء يسمى "الخوخة" ثم مرتا بالسقيفة ووقفتا في "الوسطية" ينظران الى البيت المكون من طابقين علوي وسفلي وابوابه وشبابيكه المستطيلة من اللون نفسه

وجدتا باحة البيت مملوءة بالكراسي المنظمة بجانب بعضها البعض وقد وضع قبالتها مكتب مغطى بلحاف احمر عليه قارورة ماء وكأس بلوري ونساء قد جلسن يتبادلن احاديث مختلفة ينتظرن بدأ خطاب السيدة "بشرة" اتت سيدة بفستان ارجواني طويل وسألتهما "مرحبا يا سيدات اهلا بكما هل اتيتما لتستمعا الى الخطاب؟"

قالت رقية "في ال-الحقيقة لم نكن نعلم ان السيدة بشيرة بن مراد ستلقي خطابا الان اتينا صدفة لنرى مقر الاتحاد الجميل لكن طبعا يشرفنا الاستماع اليها"

قالت "اذا يال الصدفة الجميلة تفضلا بالجلوس ستأتي السيدة بعد دقائق"

قالتا"شكرا لك"

بعد دقائق دخلت بشيرة بن مراد ووقفت مرحبة بالنساء ملقية بالتحية عليهن وقد وقفن بدورهن مصفقين ترحيبا بها بعد سماعهما لنقاشات طويلة بين النساء في الاتحاد رجعتا الى البيت قالت رقية لرباب

"عزيزتي رباب مارأيك في الاتحاد وفي النساء اللاتي استمتعت اليهن؟"

"لم اسمع اجمل من كلامهن في حياتي"

"ما رأيك الان؟"

"في الحقيقة اتمنى لو اذهب اليهن كل يوم"

ضحكت رقية وقالت"وانا اتمنى ان اخذ مكان السيدة بشيرة بن مراد"

ثم فتحت الراديو فاذا بصوت المذيع يقول"ننقل اليكم مستمعينا الكرام هذا الخبر العاجل : اليوم الاول من شهر سبتمبر 1939 تعلن القوى الكبرى فرنسا وبريطانيا قبالة نظيرتيها ايطاليا والمانيا وحلفائهما الحرب بينهم لتقوم بذلك الحرب الكبرى الثانية بعد سنوات من السلام سادت العلاقات بين القوتين المحور والحلفاء"

قالت رقية مرعوبة"غير معقول يا ويلي لقد قامت حرب كبرى ثانية يارباب اسمعت هذا ؟"

"اجل سمعت فليحطنا الله بلطفه من هؤلاء هم يتحاربون ونحن ندفع الثمن بالازمات المتتالية"

-الفصل6-

في المساء...وضعت طبقا فيه كأسين من الشاي امامه قال لها:سلمت يداك ما ألذه !اليوم الناس جميعا كانوا يتكلمون عن الحرب وعن اثارها التي ستعود علينا سلبا ونحن لازلنا نعاني من الاستعمار

...مجاعة...تشرد...فقر...اوبئة ...امراض...الاف المعوزين...خصوصا في الجبال والريف...ستزيد هذه الحرب في معاناتنا وحاجتنا"

"ولماذا ستنعكس علينا الحرب اذا كانت بين القوى الكبرى؟ ما دخلنا نحن؟ هل سيقبل الباي ان يضع المملكة في الواجهة ونحن تحت الاحتلال والفقر والظروف الصعبة؟لا اظن ذلك"

"عزيزتي نحن مستعمرة فرنسية وكل ما سيحصل لفرنسا سيحصل لنا وعلينا ...الدول المعادية لها ستعادينا وحلفائها سيتجنبون قصفنا للحفاظ على السلطة الفرنسية هنا"

"لا تهمني هذه الحرب بقدرما يهمني الا تخرج فرنسا منتصرة فتزدادا قوة ويعسر علينا اخراجها من وطننا اكثر فأكثر"

"لا تهتمي لذلك يا عزيزتي المحور اقوى من الحلفاء بكثير قوة الدوتشي الايطالي مسوليني مع قوة الزعيم الالماني هتلر اذا اتحدا لن يكسرهما شيء سيسحقان فرنسا وبريطانيا سويا"

"فليسحقها الرب في تونس ...هذا ما نريده عزيزي عدني الا تتركني ولا تدع للحرب ان تفرقنا يا حبيبي"

"ولماذا تفرقنا؟ انا معك يا حبيبتي لا يفرقني عنك شيئا عدا الموت "

ذهبت الى الة الموسيقى وضعت اغنية "حبيبي الاول والله ما ننساه " لحبيبة مسيكة واخذت ترقص له وهو يغني معها

...

صباحا اتت اليها فتون الى البيت والبيت وقفت امام بيتها واخذت تطرق الباب فلم يفتح احد..قالت في نفسها" اتراها ليست في البيت؟اين عساها تكون ذهبت؟"

اتت رقية فجأة ورأت فتون امام باب منزلها تطرقه فابتسمت منادية اياها"فتون؟ لا احد في المنزل"

التفتت اليها فتون وقالت مبتسمة "سيدة رقية" قالت رقية "مرحبا عزيزتي فتون" قالت "اهلا سديتي اتيت اليك اردت لقاءك فلم اجدك" قالت " لقد كنت اقتني اغراضا للبيت من السوق وها قد عدت " قالت فتون "هات عنك القفة سيدتي" قالت رقية "شكرا عزيزتي" ثم امسكت بالمفتاح ودخلت وخلفها فتون قالت رقية"تفضلي عزيزتي" قالت"شكرا خالة رقية" قالت"كيف حال امك وابيك واخوتك؟" "الحمدلله نحن بخير مادامت بلادنا بخير" قالت رقية"فليبقي الرب بلادنا بخير ما بقينا وما بقي الدهر" قالت فتون"امين" ابتسمت لها رقية "تفضلي الى قاعة الجلوس واجلسي ياعزيزتي اتشربين شيئا؟" قالت"لا شكرا ياخالة انا على عجلة" قالت "كأس عصير على الاقل انه عصير فراولة لذيذ حضرته بنفسي" قالت فتون "حسنا من لطفك" قالت "لن أتأخر انتظري لحظة"

احضرت لها مشروب الفراولة مع صحن حلويات وقالت"ارني ما هذا الذي بيدك؟" قالت"هذه اشعاري التي افكر ان اجعل منها مجموعة شعرية ساقوم بنشرها"

"حقا؟ هل تفكرين بنشر ديوان؟"

"اجل ما رأيك؟"

"فكرة جيدة وهل اتممت كل القصائد؟"

"اجل كنت قد اطلعت على بعض قصائدي سابقا وها انا قد اتيت بغيرها كي تقرئيها وتصلحي الاخطاء التي فيها هل بامكانك ذلك؟"

"طبعا عزيزتي سأفعل وبامكاني اكثر منن ذلك"

"ماذا تقصدين؟"

"اقصد انني ساساعدك على نشر هذه المجموعة وطباعتها"

"وهل بامكانك ذلك؟"

"اجل وما الصعب في ذلك اخبريني اولا ماذا تريدين تسمية ديوانك الجديد؟"

"فكرت في اسم يحمل معنى الوطنية وحب الوطن في ظل الظروف الراهنة "

"وماهو؟"

"هوى قلبي تونسي"

"هوى قلبي تونسي؟ عنوان رائع !"

"هل حقا اعجبك؟"

"جميل بل اكثر من رائع انت مبدعة فتتون"

"شكرا سيدتي اذا سأجلب لك كل ما لدي من قصائد عن الوطن لتأخذيها الى دار الطباعة والنشر والان علي ان اذهب تأخرت"

"فتون انتزظري لدي كتاب لك"

ماهو؟"

"انه كتاب لسيدة لبنانية من جبل لبنالن يتحدث عن قضية الحجاب الذي تلبسه المرأة العربية واسمه"السفور والحجاب" لنظيرة زين الدين الكاتبة تقصد بالحجاب الخامة التي توضع على الوجه وتتحدث فيه عن سلبياته ومنعه لنهوض المرأة والتقدم وخروجها الى العالم والقيام بواجباتها تجاه وطنها ومجتمعها واسرتها وتكبيله لها بالافكار البالية والمتخلفة التي اكل عليها الدهر"

"جميل ومنذ متى صدر؟"

"منذ العام 1928 اقرئيه وعندما تكملينه سأجلب لك كتاب فرحات حشاد"امرأتنا في الشريعة والمجتمع الذ يصدر مؤخرا انه ثورة في مجال تحرير المرأة"

"شكرا جزيلا لك سيدتي"

"على الحرب عزيزتي انت فتاة مثقفة ومنفتحة اريدك ان تقرئي كتبا قيمة كي تفهمي التيار التحرري الذي يسعى لكسر قيود المرأة في وطننا وفي الدول المجاورة والان اذهبي الى بيتك واقرئي هذا الكتاب جيدا وفقك الله وانتبهي الى نفسك جيدا"

"عن اذنك"

عادت فتون مسرعة الى البيت تركض قفي انهج المدينة العتيقة كي لا تشعر امها بتأخرها فتحت باب بيتها وحاولت الدخول خلسة وحين رأتها والدتها صرخت"فتون اين انت؟" "كنت هنا في الحي" "سألتك اين كنت كل هذا الوقت؟اعلم انك في الحي لكن اين؟" "عند صديقتي وفاء""تكذبين لقد مرت وفاء الى بيتنا وطلبت رؤيتك منذ ساعة فلم تجدك " ثم امسكت خديجة باذن ابنتها وصرخت في وجهها"لا تجننيني!قولي اين كنت اجيبي." "اتركيني يا امي لقد كنت عند جارتنا رقية " "رقية؟ماذا رقية؟تلك اليهودية؟" "اجل " "الم اقل لك مرارا لا تذهبي اليها او تدخلي بيتها القذر انها ليست من ملتنا لا يجب ان نرافقها"

"لكن السيدة رقية تحبني وتهتم بالاشعار التي اكتبها وتبدي اعجابها بي وقالت لي اليوم انها ستساعدني على نشر مجموعتي الشعرية" "مجموعة ماذا؟ كبري عقلكم وكوني رصينة يا ابنتي " "صدقيني يا امي انني كلما ذهبت اليها تبعث لك ولابي بالسلام والتحية " "لا اريد سلاما من احد اذهبي وغيري ثيابك بسرعة لتساعديني في المطبخ" "حاضر يا امي"

...

بعد الغداء جلس عمر لاحتساء الشاي قدمت له فتون الكأس وقالت "تفضل يا ابي" "سلمت يداك يا ابنتي اجلسي اخبريني من رأيت اليوم؟الى اين ذهبت وكيف قضيت يومك؟" "لقد ذهبت صباحا الى بيت جارتنا رقية يا ابي" "جيد وماذا فعلت هناك؟" "اخذت اليها اشعاري فقالت لي انها ستساعدني على نشر مجموعتي الشعرية ""وماذا سيكون عنوانه؟" "هوى قلبي تونسي" "اسم جميل" "لكنني حين عدت من بيتها غضبت والدتي وقالت لي لا تذهبي اليها مجددا" "اوف ولماذا؟" "لا لشيء لكن لانها يهودية" "حقا؟ هل خديجة قالت لك ذلك؟" "تقول انه لا يجب علينا ان نختلط باناس من غير ملتنا" وضعت امها طبق الغلال على الطاولة وقالت بتحد"اجل قلت ذلك وهل في كلامي خطأ؟" المراة يهودية وتربي كلبا في بيتها لا اريد لابنتي ان تدخل بيتا نجسا او تنأكل من اكلها علها تضع فيه لحم خنزير او شيئا محرما معاذ الله" "قلت لي سابقا لا تأكلي عندها وامتثلت لذلك يا امي انها كلما ارادت ان تدعوني للغداء رفضت وتعللت بأتفه الاسباب كي اطيعك" قال عمر" اسمعي ياخديجة لا يجوز ان تقولي عن المرأة هكذا لانها يهودية فهي جارتنا قبل كل شيء وهي طيبة جدا ولم نرى منها شيئا يقلقنا ولم تعاملنا الا بمعاملة حسنة وكلمة طيبة" "لم انكر لكنها من غير ملتنا" "لكنها تونسية وابنة حينا وعائلتها ووالديها كنا نعرفهم جيدا وكانوا جيراننا منذ دهر...ولا فرق لدينا بين مسلم ويهودي نحن جميعا تونسيون ولم نسمع يوما انها تمجد فرنسا او تساندها ضدنا بالعكس انها امرأة فاضلة ومحبة لوطنها وعيب كلامك هذا يا خديجة رسول الله (ص) راى جنازة يهودي فمشى فيها وقرأ له الفاتحة ...فما المشكلة ان تعايشنا واياهم ما داموا ابناء بلدنا" "اجل يا ابي انها محبة لوطنها زوجها يحب الفرنسيين ويدعمهم لكنها تقف ضدهم وتساند الحزب الدستوري على عكسه وهي من داعمي المشروع التحرري ومساهمة اللمرأة في النضال" "حقا؟ جميل" "لهذا احب الجلوس معها انها امرأة تونسية اصيلة ولا تتعالى او تترفع على هذا البلد لديانتها

المختلفة بل على العكس تماما" قال عمر"هل حقا تساند الوطنيين ؟ " "اجل يا ابي" "ليتك تدعوينها الى بيتنا يوما يا خديجة علها تعلمك الوطنية وتحدثك عن الحزب الدستوري" "وهل تراني جاهلة ياسي عمر؟" "معاذ الله لكن لم اكن اظنك متشددة ومنغلقة " انا ياسي عمر؟" "اجل الا اذا قبلتها في بيتك عندها سأغير فكرتي عنك" "حسنا دعيها تجيء في المرة القادمة" "حقا يا امي؟ شكرا جزيلا"

-الفصل 7-

1942/6/19

فتح مصطفى دكانه صباحا وجلس الى الطاولة ثم ضغط على زر الراديو ليستمع الى الاذاعة التونسية"اسعد الله صباحكم مستمعينا الكرام ...نوافيكم بهذا الخبر العاجل..توفي سيدنا "احمد باي الثاني " باي البلاد صباح اليوم بعد ازمة صحية لفترة طويلة ليتم تعيين محمد المنصف باي خلفا له هذا اليوم وسيتم تشييع جثمان الفقيد المغفور له احمد الثاني عشية اليوم في مقبرة المرسى في تربة الباي "قال في نفسه"غير معقول باي البلاد توفي ...رحمه الله...فليكن الله في عون هذا الباي الجديد الذي سيمسك ببلاد لاشيء فيها يسر النفوس" هو كذلك بينما دخل عليه صديق عمره نور الدين وقال"صباح الخير يا شارد الذهن" .."نورالدين؟صديقي صباح النور والسرور لست شاردا لكن سمعت خبر وفاة الباي اليوم صباحا وتعيين محمدالمنصف باي كان الله بعونه"."سمعت ذلك انا ايضا رحمه الله وغفر له لقد اتيت اليك اليزوم لاخبرك انه لدينا اجتماع سري في بيت صديقنا محسن الليلة اظن اننا سننظم عدة مظاهرات هذا الاسبوع وسنقوم بتوزيع مناشير عديدة على الوطنيين وكل من يرغب بالمشاركة بالاضافة الى ادة اعمال تخريبية سيقوم بها المناضلون ضد العسكر الفرنسية في احواز العاصمة وفي مختلف الولايات وكل هذا سيكون تحت اشارة القائد الحبيب ثامر وبأمره" .."لماذا هذه السرية في اجتماعاتنا؟ منذ احداث 9افريل ونحن نجتمع في الخفاء لماذا؟" "هكذا القواعد يا مصطفى علينا ان نخطط في السر كي تنجح عملياتنا ولا يحبطها العسكر الاستعماري اننا نعمل هكذا منذ قرابة الاربع سنوات وها نحن ننجح دوما وغدا في صلاة الجمعة سنحشد اكبر عدد ممكن من المناصرين لنا" "حسنا سأحرص على الحضور الليلة" "اتركك على خير" "في امان الله"

....

كانت رقية ورباب جالستين على حسير ارضا يقاومان الحر بال"مروحة" ومشروب الليمون البارد...قالت رقية لرباب"ماهذا الحر يا رباب لا اقدر على التحمل"

"يبدو انها صائفة ساخنة"

"اجل تبدو كذلك لكن انا لن ابقى هنا ساذهب الى حلق الوادي واقضي الصيف لدى احدى صديقاتي"

"جميل"

"رباب لقد راودتني فكرة لدي صديقة تدعى جانيت في حلق الوادي اقضي صيف كل سنة في بيتها الا تريدين القدوم معي؟ افضل من ان تبقي وحيدة هنا"

"الاتنزعج صديقتك من ضيفة غريبة يا ترى؟"

"على العكس تماما صديقتي هذه وحيدة مثلي ليس لديها عدا ابنتها "صوفي" وكلبتها "نينا" انها طيبة وتفرح بكل من يزورها"

"اسفة رقية الا استطيع انا لا اشرب خمرا ولا اكل لحما محرما ولا اعيش في بيت فيه كلب لانني اواظب على صلاتي"

"لا تقلقي تصرفي على راحتك لن نجعلك تفعلين شيئا لا تريدينه"

"لا ارجوك رقية لا اقدر اعتذر عن تلبية الدعوة"

"كما تريدين واذا اردت ان تتصلي بي بامكانك ان تطلبي هذا الرقم"

"اظن انني ساحتاجك"

اتصلي بي من البريد هناك يوجد هاتف عمومي انا ساجهز حقيبتي الان"

"وانا ساحضر طاولة الفطور "

جلسا على الطاولة للغداء وتحدثا طويلا عن حلق الوادي واجوائها الصيفية

قالت رقية "ليتك ترين جمال هذه المدينة في الصيف لو ترين جمال بحرها وهوائها والمتعة عندما تجوبين شوارعها ليلا وتجلسين في مقاهيها تستمعين الى اغاني ام كلثوم وعبد الوهاب او حبيبة مسيكة والشيخ العفريت "

"لابأس سأراها في فرصة اخرى"

"كما تريدين غدا سيوصلني اسحاق الى هناك لا تنسي انني لست في بيتي لذا اتصلي على الرقم الذي اعطيتك اياه"

"حسنا لكن لماذا لا تذهبين بمفردك بامكانك الذهاب بالقطار"

"اسحاق لا يسمح لي بذلك انني لا اركب القطار الا في الخفاء ودون علمه"

"ولماذا"

"هكذا يريد يجب ان يأخذني ودون علمه"

"ولماذا؟"

"هكذا يريد يجب ان يأخذني ويأتي بي ...يغار"

ضحكت رباب بشدة وقالت "ذكرتني بتلك الاغنية القائلة

"مغيار يلي راجلها مغيار*يلي*مغيار*عيشة مرة ليل ونهار **يلي"

فقالت رقية:

"يغير عليها **ليل ونهار يعارك فيها **يروح مالخدمة ويجيها***ميخرجش من قلب الدار يلي"

وتعالت ضحكاتهما ثم ضمتها اليها وقالت بأسف"سأشتاقك يا ربابتي العزيزة"

...

في صباح الغد ركبت رقية واسحاق السيارة متجهين الى حلق الوادي وصلا بعد ساعة من السير...

توقفت السيارة امام باب منزل جانيت فنزلت رقية مسرعة من السيارة وطرقت الباب ففتحت جانيت وانبهرت فرحة بزيارة صديقتها

"رقية؟ مرحبا عزيزتي كيف انت؟ هل هذه رقية حقا؟ لا اصدق عيناي ...لماذا كل هذه الفترة من اللغياب؟كدت انسشى ان لي صديقة تدعى رقية"

"اتنسينني بهذه السهولة جانيت.؟ اسفة على الفترة الطويلة التي مضت لقد شغلتني عنكم فتاة قيروانية تعرفت علبيها مؤخرا"

"فتاة قيروانية؟"

"سأحدثك عن كل شيء لاحق دعينا الان ندخل ونأخذ قسطا من الراحة"

"طبعا تفضلي يا عزيزتي البيت بيتك نورت مدينة حلق الوادي"

دخلتا الى الصالون وتعانقتا ...وضع اسحاق الحقائب ارضا وقال

"هيا كفى عناقا ودموعا"

قالت جانيت "اسحاق كم اشتقتك لماذا لم نعد نراك او نسمع عنك شيئاكم اعتب عليك بحق الرب"

"اعتذر عزيزتي لكن العمل قد شغلني طيلة هذه الايام"

"فليبارك الرب في جهدك فلتجلس ولتشرب عندي قهوة الم تشتق لطعنم قهوتي المعطرة بالزهر؟"

"بلى اشتقتها لكنني على عجل ويجب ان اذهب للتو"

"حسنا في حفظ الرب"

جلست رقية على الاريكة الفخمة وسط الصالزون الفاخر وبقيت تلاعبها وقالت لجانيت"اين عزيزتي صوفي انني لا اراها" قالت لها "انها في البحر مع صديقاتها هيا تعالي للغداء"

بعد الفطور جلست رقية بفستان خفيف تحتسي الشاي مع جانيت فقالت لها" ما اخبارك مع اسحاق؟ وكأنك تبدين لست سعيدة معه؟ ام انني مخطئة يا رقية؟"

"لا لست كذلك حياتي معه كلها عذابات ومرارة وبرودة عطفية حياة فارغة مظلمة كبرودة الصقيع"

"كيف تمضين وقتك ؟" قالت "كالعادة بالادب والمطالعة والطبخ والحمدلله انني تعرفت الى صديقة قيروانية جديدة ملات حياتي وايامي ضحكا وسرورا في ذلك الحي" "وما قصة هذه الفتاة القيروانية؟" قالت "انهال فتاة يتيمة مات والداها وبقيت لوحدها تعاني العذاب مع اخيها وزوجته اللذين يسلبانها مالها ويعنفانها فأتت الى العاصمة وأضحت تسكن بيتا قريبا من بيتي واصبحنا صديقتين انها وحدها من تؤانسني" قالت" جيد ولم لم تأت معك؟" قالت رقية "دعوتها ولم ترغب في ذلك" "لا بأس لا مشكلة" "اتعلمين ما أكثر ما يقلقني هذه الفترة ؟"

دخلت ابنة جانيت صوفي الى البيت مبللة الشعر وملتفة بمنشفة قالت رقية"هاه هاقد اتت صوفي الجميلة كم كبرت يا جميلتي اصبحت سمراء" قالت جانيت" تمضي يومها كله في البحر طبعا ستصبح سمراء تعالي وألقي التحية على رقية صديقتي من "المدينة العربي" " قالت صوفي"مرحبا خالة رقية اهلا بك في بيتنا شرفتنا عذرا علي ان استحم سآتي بعد دقائق"

قالت رقية"خذي راحتك ياعزيزتي"

ذهبت صوفي فقالت رقية"ان اكثر ما يقلقني في هذه اسحاق يحاول اقناعي بترك تونس والسفر معه الى الدولة التي سينشئونها ويسمونها اسرائيل التي سيقيمونها في فلسطين"

"هل تقصدين ارض الميعاد التي سيعود اليها اليهود؟ اجل انها ستصبح وطنا قوميا لليهود من كل اصقاع العالم "

"ماذا؟ماذا تقولين يا جانيت؟ وهل انت موافقة؟"

"طبعا بلا ك نحن في النهاية لسنا تونسيين"

"لا اصدق ما اسمعه والفلسطينيون ياجانيت؟ الى اين سيذهبون؟اين سيعيشون اذا طردناهم من بلادهم؟"

"لكننا لن نطردهم نحن فقط سنعيش معهم"

"حقا؟ وهل تظنين ذلطكك؟ لا تصدقي كلام الجرائد يا جانيت انهم يريدون سرقة وطن يريدون طرد اناس من بلادهم واحتلالهم تماما كما يحتلنا الفرنسيون هنا"

"في الحقيقة انا لا اعلم الكثير عن هذه الامور"

"ثم هل ترضين ان تغادري تونس هل تغادرين ارضك؟ انت ابنة هذا التراب نحن هنا ولدنا وعشنا وهنا يجب ان نواري الثرى نحن هنا اجدادنا عاشوا وهنا والدي ووالدك توفيا ودفنا وهنا انجبت امي وامك ذريتهن وهنا جيراننا واهلنا واصدقائنا كيف نترك كل من نعرفهم ونذهب للعيش مع اناس لا نعرفهم ولا ندرك شيئا عنهم؟ في بلاد لا نعرف كيف نمشي في شوارعها ولا نعرف اسماء مدنها...انا لن اغادر بلادي لو قاموا بقتلي هنا "

"حسنا اهدئي لماذا غضبت انسي الامر لدق اتيت الى هنا للاستمتاع "

"معك حق اريد ان ارتاح قليلا حياتي في بيت اسحاق جحيم"

"لا تقلقي سنذهب الى السينما والحدائق والمقاهي ودور الكتب والمسرح وسنسهر كل ليلة على الشاطئ وسننزل الى البحر كل صباح لن تملي ابدا"

"شكرا جانيت"

"ولو ! على ماذا تشكرينني ؟ اشتقتك كثيرا يا رقية اشتقتك اشتياق الجسد للماء والثغر الى البسمة والعين الى الفرحة"

"الله !هل اصبحت شاعرة مثلي؟"

"تعلمت منك"

"لن تصبحي مثلي اطمئني"

"وهل في ذلك شك؟سآخذك كل ليلة الى السهر مرة في مطعم واخرى في بيت صديقاتي ...لدي صديقات زوجات اعيان واكابر ساعرفك عليهن"

"هذا جميل"

في المساء...ذهبت رقية برفقة جانيت الى بيت احدى الصديقات وعرفتها عليهن هناك وفي غمر احاديثهن طرحت احداهن موضوع الذهاب الى الكيان الصهيوني قائلة

"سنرافق جميعا ازواجنا بعد قيام دولتنا الى هناك "

قالت رقية"نحن هنا نعيش في اوطاننا براحة ولم يزعجنا احد من المسلمين اننا نحيا سويا منذ سنوات في نفس الاحياء ونتعايش سويا دون مشاكل لذلك فأنا لا يقلقني البقاء هنا"

"ولكن اليهود اللذين سيبقون هنا سيدفعون الثمين"

"وكيف ذلك؟"

"لان العرب والمسلمين سيكرهونهم ويعتبرونهم اعداء لهم ويعلنون عليهم الحرب"

"ولكن المسلمين يعيشون معنا منذ سنوات ولم نرى منهم الا كل الخير"

"لكنهم سيتغيرون يا رقية وسيكرهوننا بعد اعلان قيام دولتنا لانهم يروننا بلا حق في هذه القضية وهذا اخطر علينا من الذهاب هناك لذا علينا الا نبقى معهم هنا"

"انا لن اغادر وطني تونس مهما حصل لي"

"وان اجبرك زوجك على الذهاب برفقته؟"

"لن انصاع اليه انا احب هذه البلاد واحب اناسها انهم احبتي وجيراني منذ دهر هنا عاش والداي وهنا توفيا وهنا درست وكبرت وهنا احببت اول رجل عرفته في حياتي...لن اترك هذه الارض...الا ترون ما اجملها؟...الن تشتاقوا الى حلق الوادي واجوائها الصيفية الجميلة ان غادرتن الى فلسطين؟ الن تشتقن الى المدينة العتيقة وشارع جول فيري والى شاطئ المرسى والى القطار وصوت صفارته؟ او الى العشاء

ليلا في احد المطاعم هنا على حافة الطريق وانتن تستمعن الى اغاني الشيخ العفريت او شافية رشدي؟ الن تشتقن الى الاكلات التونسية والى كل التفاصيل التي تعيشونها هنا؟ هل هناك بلد واحد في الدنيا اجمل من هذا البلد؟ هل هناك اطيب من هؤلاء اللذين يعيشون معنا هنا؟ ه"

"عزيزتي رقية كلنا سنشتاق اليها ولكن هذا لا يعني الا نغادر فغدا سنتعود"

"انتن تعودن اما انا فلن أذهب"

...بعد انتهاء العطلة الصيفية عادت رقية الى بيتها والتقت برباب وعانقتها بشدة وشوق وجلست لتحدثها عن قضائها لعطلتها الصيفة في مدينة حلق الوادي

-الفصل8-

1942/12/1

كان الرجال مجتمعون في المقهى كعادتهم ...قال مختار:

"ان الحرب بين قوات المحور والحلفاء تشتد لقد انزلت الحكومة الامريكية قوة عظيمة في المغرب والجزائر بقيادة الجنرال ايزنهاور لمساندة حلفائها الفرنسيين والانكليز "

قال المنصف "صحيح وقد تمكنت قوات المحور من الاستيلاء على جانب كبير من البلاد التونسية في 9 نوفمبر الماضي ومنذ ذلك الوقت والمعارك بين الحلفين اصبحت ضارية حتى اصبحت تونس مسرحا لمعركة بين اكبر جيوش العالم والنصر مرة لهؤلاء ومرة لهؤلاء ولا احد يدفع ثمن كل هذا عدا شعبنا المسكين الذي يعاني الجوع والعراء والتشرد والذل والحاجة اضافة الى الخسائر التي تتكبدها دولتنا من دمار للمحلات والمنازل والبنى التحتية" قال مختار"اجل صحيح لقد تعرضت كل المدن الكبرى لاضرار العاصمة وبنزرت وسوسة وصفاقس أي اهم المدن في البلاد بالاضافة الى القرى والارياف اللذين لم يسلموا من قنابل القوى الاستعمارية"

دخل سي عمر الى المقهى وقال"السلام عليكم يارجال"

قال الجميع "وعليكم السلام يا "سي عمر" "

قال مختار"اجلس يا سي عمر"

قال عمر" هات قهوة من فضلك يا صحبي"

"حاضر يا سي عمر"

"حدثوني ما آخر الاخبار؟"

قال منصف "كنت اتناقش انا واخي مختار عن الحرب بين المحور والحلفاء"

وبينما هم كذلك دخل الهادي (القهواجي) وقال:

"اسمعوا يا رجال الحي اسمعوا هذه الاخبار السارة يا عباد الله لقد تم بفضل سيدي المنصف ادامه الله الافراج عن السجناء السياسيين وقادة الحزب الدستوري اللذين تم سجنهم يوم العاشر من افريل عام 38 من بينهم علي البلهوان والزعيم بورقية اليوم الاول من ديسمبر 42 انه ليوم عظيم !

قام الرجال من على كراسيهم فرحين مهللين باسم سيدي المنصف باي فقال لهم "ليس هذا فقط بل وهناك اخبار تؤكد ان سيدي المنصف سيعمل على تشكيل وزارة تونسية جديدة برئاسة السيد محمد شنيق ومن دون ان ينتظر موافقة المقيم العام الاميرال "أستيفا" عميل حكومة فيشي حيوا الباي يا رجال "

فأخذوا يصرخون جميعا"يحيا سيدي المنصف"

قال الصحبي صاحب المقهى"يا رجال مشروباتكم كلها على حسابي اليوم"

...

صباحا كانت رباب تحضر القهوة عندما اتت اليها رقية وقالت بفرح

"رباب انظري ماذا جلبت لك اقصد لنا"

"ماهذا؟"

"اربع نتذاكر سينما في احدى قاعات شارع جول فيري"

"سينما؟"

"اجل سنشاهد فيلم انتصار الشباب للفنانة اسمهان وفريد الاطرش فيلم صدر عام 1939 أي منذ اربع سنوات تقريبا هل تحبين اسمهان؟"

"اجل احبها لكنني لم ارتاد قاعة سينما ولو مرة في حياتي"

"لا مشكلة سترتادينها برفقتي لا داعي لان تخجلي هنا في العاصمة الكل يذهب الى السينما"

"وهل سنذهب بمفردنا؟"

"لا طبعا لا نستطيع ذلك سيذهب برفقتنا زوجي العزيز"ثم تضحك فتقول لها رباب

"وهل بامكان سي عمر ان يذهب معنا؟"

"سي عمر؟. نعم فكرة جيدة"

"لكن نسينا شيئا مهم يا رقية"

"ماهو؟"

"ماذا سنرتدي؟"

"لاتقلقي بشأن هذا فستانك وفستاني دعيهما علي انا سأتصرف مع اضافة بعض الاكسسوارات وحذائين بكعب عال وسنكون اجمل فتاتين في القاعة"

"يا ويلي كعب عال؟ لم البسه قط"

" لا بأس ستفعلين كل مالم تقومي به من قبل معي انا انسي القيود التي كنت تعيشينها في القيروان"

وضعت رباب طبق القهوة على الطاولة مبتسمة وقالت"جميل سنصبح مثل السيدات الفرنسيات اللاتي يذهبن الى المقاهي وقاعات السينما ولا يلبسن الحايك او السفساري"

ضحكت رقية قائلة"انسي اللحفة عندما تفكرين في الذهاب الى السينما"

"هيا فلنشرب القهوة"

"سلمت يداك يا رباب رائحتها ذكية"

"اشربي بالعافية"

"يا سلام اين لي ان اجد قهوة لذيذة كهذه في مكان اخر من العالم"

"بصراحة عندما اتيت الى هنا خفت ان يكون سي عمر من الرجال ذوي العقول المتحجرة مثل اخي وامثاله من القساة والمتشددين ولكنني سرعانما اكتشفت ليونته ولباقته ولقيت منه تقديرا واحتراما لم القاه من اقرب المقربين الي"

"اعلم ذلك سي عمر من اكثر الرجال وعيا وثقافة وانفتاحا ووقارا في الحي انه رجل مناضل ووطني وهو مساند للمشروع التحرري حقا انه استثنائي وانت محظوظة به"

"وماذا عن مصطفى؟"

"مابه؟"

"كيف ينظر الى المرأة؟"

"مصطفى انسان مثقف تخرج من الزيتونة وحصل على شهادة الحقوق منذ عام 29 انه وطني ومناضل في الحقيقة لا ادري كيف ينظر الى المرأة لكنه يرى انني افضل امرأة في الدنيا"ثم تعالت ضحكتها وقالت"اشعر انه ليس ضد تحرر المرأة وانفتاحها ومشاركتها في الحياة السياسية "

....

في الصباح

وقفت رقية امام المرآة المستطيلة المزركشة باطار ذهبي اللون تتجمل بالكحل واحمر الشفاه دخل اسحاق الى الغرفة ووقف ناظرا اليها امام الباب ثم بادر بسؤالها:

" الى اين انت ذاهبة رقية؟"

وضعت رشة عطر على جيدها واخذت حقيبة يدها قائلة"انا على موعد مع الكاتبة الشابة جيزيل حليمي سأراها في احدى المقاهي في باب بحر"

ومن تكون هذه؟"

"انها صديقة قديمة لي وهي اصيلة مدينة حلق الوادي"

"حسنا اذهبي ولا تتأخري "

"عن اذنك يا عزيزي"

"في حماية الرب"

نظرت اليه قائلة"على فكرة لقد تحصلت على اربع تذاكر للسينما سنشاهد فيلما في قاعة الكوليزيه انا وصديقتي رباب"

"من رباب؟"

انها صديقتي وجارتي من بير الحجار لقد رأيتها مرة مع سي عمر"

"اجل تذكرت"

"هل بامكانك مرافقتنا انت وسي عمر؟"

"كما تشائين وسي عمر مع من سيذهب ؟مع زوجته خديجة؟"

"لا سأكون انا وانت ورباب وسي عمر"

"رباب صديقتك ستذهب الى السينما برفقة سي عمر؟ هل ينوي سي عمر على الزواج مجددا؟"

"لا اعرف ربما ينوي ذلك...انا ذاهبة مع السلامة اذهب الى سي عمر واخبره لا تنسى"

....

في الليل...طرق سي عمر برفقة رباب ففتح لهما اسحاق مبتسما قائلا:

"اهلا اهلا سي عمر تفضلا ادخلا اهلا يا اختي تفضلي"

"شكرا لك سيد اسحاق اين هي السيدة رقية؟"

"مازالت تتجمل في غرفتها كما تعلم النساء دائما متأخرات لا يقمن اعتبارا للوقت قط"

"علينا ان نسرع لم يبقى الا القليل كي يبدأ الفيلم علنا نحصل على كراسي في الواجهة الامامية "

قالت رقية "دقيقة وسأكون جاهزة يا سي عمر ادخلا واجلسا اهلا بكما"

قالت رباب "سأذهب الى رقية"

قال اسحاق"اجلس يا سي عمر اتشرب شيئا؟"

"لا شكرا لا اريد ذلك هل سمعت اخر الاخبار؟"

"ماهي؟"

فرنسا تكشف من عمليات تجنيدها للتونسيين في عذه الفترة وقد سخرت الكثير ممن جندتهم للعمل في الحضائر "

"اجل سمعت لعنهم الله يريدون اذلالنا الا يكفينا ان بلادنا قد تحولت الى مسرح للصراع بين القوتين المحور والحلفاء"

"بالمناسبة ...لقد اتهمت فرنسا التونسيين مؤخرا بتعاونهم مع المحور والعمل لصالحه وهاهي تشن حملة زجت فيها بالالاف في السجون والمحتشدات"

"غير معقول على الاقل سيدي المنصف التزم الحياد تجاه الصراع وقد ساهم كثيرا في تحسن الوضع"

"اجل لقد قام مؤخرا بخطوة غاية في الشجاعة لقد كطلب من الاستعمار ان يخلي سبيل المعتقلين اللذين لم يثبت بالادلة تعاملهم مع قوات المحور"

"انا لست ارى الوطنيين يعملون بجد لتحقيق مطالبهم فمذكرة المطالب الوطنية المتعلقة بالشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية والقضائية لم يستجيبوا الهيا ولم يأخذوها بعين الاعتبار"

"هذا صحيح لكن رغم تهاون حكومة فيشي معنا واستهتارها بمطالبنا هاقد شكلنا في جانفي الماضي حكومة وطنية برئاسة محمد شنيق الفت بين الحزبين القديم والجديد وجمعت بين اعضائهما وضغطت على فرنسا للقيام ببعض الاصلاحات حتى اقرت فرنسا بحق التونسيين في الثلث الاستعماري"

"محق يا سي عمر "

دخلت رباب الى رقية وقالت "هيا الم تجهزي بعد؟"

قالت رقية "لقد جهزت ما هذا الجمال؟ حقا ان الفستان الذي اعطيتك اياه يليق بك كثيرا لماذا لم تلبسي الفساتين منذ البداية حتى تظهرين بهذا الجمال؟"

"شكرا عزيزتي"

قال اسحاق "هيا يا نساء تأخرنا"

غادروا جميعا ذاهبين الى قاعة السينما.

-الفصل9-

في الغد ليلا اتى الى مصطفى الى بيت رقية ...وضعت طبق القهوة والحلو امامه وقالت

"الشعب يعاني الويلات بسبب الحرب بين الحلفاء والمحور...لقد تحولت بلادنا لموقع صراع بين اعظم الجيوش في العالم اللذين لا يحسبون لنا حسابا في معاركهم الدائرة على ارضنا فمرة ينتصر طرف واخرى ينتصر اخر وشعبنا يعاني الجوع والعراء والتشرد في كل ولايات البلاد ...في المدن والجبال والصحراء في الحضر وفي الريف .

نقص في المواد الغذائية وانعدام توفير للمؤن او تقديم اعانات نقص في الادوية واللباس والغطاء ..كيف سيقاسون بدر الشتاء وهم في العراء يفترشون الارض ...كل يوم يموت عشرات الاطفال وتجهض النساء من الجوع والمرض ونقص المناعة وسوء التغذية علاوة على الخسائر التي تلحق لدولتنا جراء هدم المنزل وتخريب المحلات والسكك الحديدية حتى ...اريد ان افعل شيئا لهؤلاء اللذين لا ناقة لهم ولا جمل في هذه الحرب وكتب عليهم ان يكونوا ضحاياها"

قال"معك حق في كل ما تقولينه وضعهم صعب لكن ماذا عسانا نقدم لهم فنحن ايضا هنا في المدينة تمطرنا القنابل كل يوم وساعة ويسقط بيننا جرحى وشهداء"

"ولهذا علينا ان نتحرك سريعا يا عزيزي ....لقد سمعت انه تم انشاء جمعيات الاسعاف ولجان الهلال الاحمر مؤخرا لحماية المنكوبين ...لذا افكر في ان اساعدهم بما لدي من اموال ليقوموا بإيصالها الى ضحايا الحرب...مع بعض الاغطية والملابس والغذاء"

"هذا افضل ما يمكنك فعله يا حبيبتي ...يمكنك الذهاب الى الهلال الاحمر وتسجيل اسمك في القائمة وقديم ما تريدينه لهم سيوصلونه باذن الله الى المنكوبين الكثيرون من اهل حينا قاموا بذلك ...كل اهالي المدينة يتحدثون عن المساعدات وعن انقاذ هؤلاء الضحايا...علينا ان نقف سويا يدا واحدة كي نقاوم هذه الكارثة التي حلت بنا منذ حلت هذه الجيوش بأرضنا لعنهم الله...كنا نفكر بمقاومة الاستعمار الفرنسي فإذا بأرضنا تتحول لمسرح لمعركتهم اتعلمين ان هذا قد خلق ازمة لنا نحن التجار بسبب المحتكرين اللذين وجدوا في هذه الحرب ملاذا آمنا لهم لاحتكار المواد الغذائية والبقول وغيرها والتي اصبحنا نشتريها بثمن باهض جدا ونضطر الى الرفع في سعرها كي لا نبيعها بالخسارة والناس في وضع حرج واصبحوا يتذمرون من الاسعار المشطة...مؤخرا تطوعت الشبيبة الدستورية لمساعدة السلطات التونسية على حفظ الامن ووعدت بمقاومة الاحتكار وتنظيم التموين...لعل الوضع يتحسن قليلا بفضلهم"

...

في اجتماع الرجال في المقهى

قال مختار"ان فرنسا تمر بمرحلة ركود وضعف لقد كرهها شعبنا ولم يعد يثق بحكومة فيشي وبوعود سلطات الحماية الواهية التي تذرها علينا دون ان تفي بها"

قال المنصف" صحيح فقد اضحى المدنيون مؤخرا ضحايا لطائرات الفرنسيين فعندما قام السكر الطليان والالمان مؤخرا بغزو مدينة سوسة والتمركز فيها جعلت فرنسا تقصف المدينة بالطائرات تقصف الجميع عساكر ومدنيين اجانب وتونسيين,حتى التجأ كل السكان الى مدينة حمام سوسة التي اصبحت عاصمة للاجئين في جهة الساحل التونسي"

قال مختار"لقد قرأت مؤخرا عن ذلك اين الصحيفة؟ استمع الى هذا المقال: "اثر دخول العسكر الالمان والطليان لمدينة سوسة في نوفمبر الماضي أقام فيها رومل اثر قدومه من ليبيا وهو ما سبب عدة هجومات بالطائرات الفرنسية على المدينة التي هاجرها سكانها الى حمام سوسة التي اصبحت عاصمة الجهة وانتقلت اليها جل الخدمات وجميع الادارات واختلط اليهود اللذين كانوا محلا للتبعات من الالمان ببقية المدنيين والتونسيين اللذين قاموا بحماية الجالية اليهودية وسهلوا عليهم الاقامة واضحو اجيرانا بحيث توطدت العلاقات في ما بينهم وقد ساد البلاد سياسة التقسيط لقلة البضائع واضحى الالمان هم امل السكان التونسيين اللذين احبوهم لاضعافهم لوحدة المستعمر الفرنسي وتغلبهم على هيمنته فذاق الذل الذي اصبح ملحوظا في سلوك جنودهم اليومي ....." لقد اضحى الالمان املنا في التخلي عن هذا المستعمر يا رجال"

قال سي عمر:هذا غير صحيح يا مختار فإن الالمان ولو تغلبوا على الفرنسيين فهم سيقومون بذلك لصالح معركتهم ولان فرنسا من حلف غير حلفهم وهذا لا يعني ان تقف معنا المانيا وتساندنا في التغلب عليهم"

"لماذا يا سي عمر؟ان الحرب الكبرى ان انتصر فيها المحور ستغادر فرنسا ارضنا"

"هذا غير صحيح انها شعارات تنشرها الجرائد المنساقة خلف النازيين وقد حذرنا الزعيم بورقيبة عندكما كان في المعتقل من الانسياق خلفهم وخلف الشعارات النازية لذا مستبعد كثيرا ان يكون المحور هو المنتصر"

قال الصحبي"ان كلام سي عمر هو عين الكلام ..ان بورقيبة له نظرة استشرافية وهو متفوق على غيره من الوطنيين بدبلوماسيته العالية انه يراهن على انتصار الحلفاء وفرنسا واما عن قضيتنا فلا علاقة لها بهذه الحرب ...ستخرج فرنسا من ارضنا سواء انتصرت في هذه الحرب ام لا "

"فليراهن كما يريد انا اؤكد ان التونسيين وضعوا يدهم بيد الالمان والطليان وقاموا بعمليات عسكرية مشتركة ضد الفرنسيين وفي اماكن عدة"

قال عمر"ان عرف الفرنسيون ذلك سيعد هؤلاء فورا قوات المحور سيحمون جنودهم اما هؤلاء المنساقون من التونسيين من سيحميهم؟"

قال مختار"لهم الله انهم شرفاء وابطال كسروا شوكة المستعمر"

-الفصل 10-

1943/5/14

...انتهت الحرب في اليوم السابع من شهر ماي من عام 43 بين المحور والحلفاء انتصار الحلفاء وانسحاب المحور من الاراضي التونسية فيدخل الحلفاء العاصمة وسط ابتهاج الشعب وبعد 7 ايام

...استفاق سي عمر باكرا وجلس الى الطاولة بعد الصلاة لتناول الفطور قائلا

"هيا يا خديجة الى الفطور ونادي لابنك الطاهر"

قال الطاهر" ها انا قادم يا ابي"

قال "خذي يا ابنتي قطعة الخبز"

"شكرا يا ابي"

فتحت خديجة الراديو بعد ان وضعت صحن التمر على الطاولة

"نوافيكم مستمعينا الكرام بهذا الخبر العاجل تم اليوم خلع باي البلاد سيدي المنصف من طرف السلطات الفرنسية بدعوى تعاونه مع قوات المحور وابعاده الى الصحراء الجزائرية وتعويضه بولي عهده الباي محمد الامين"

قال الطاهر"غير معقول سيدي المنصف خلع يا ابي"

قالت خديجة"يا ويلي خلع باي الشعب العطوف من سيحنو على اليتامى والمساكين من بعدك يا سيدي المنصف"

قال عمر" لقد شعرت منذ دخول الفرنسيين الى العاصمة محتفلين مبتهجين بانتصارهم انهم سيفعلون شيئا ما لن يسر هذا الشعب"

"لم يبقى لدي شهية للطعام يا ويلي ما هذا الخبر عند الصباح"

"لماذا تبكين يا خديجة ؟ هل انت وحدك من يأسف لهذا؟ لا حول ولا قوة الا بالله لم يتركوا فرصة لهذا الشعب ان يفرح بانتهاء الحرب حتى سلبوه اغلى مابقي في هذه البلاد انا ذاهب"

...

سمعت رقية ورباب الخبر اثناء احتساهما القهوة في غرفة الجلوس"غير معقول..يا لهم من انذال...لا اصدق هذا يا رباب"

"ماذا فعل لهم سيدي المنصف حتى يخلعوه خلعهم الله من هذه الارض لماذا هذا؟"

"سيدي المنصف يتعاون مع قوات المحور؟ أي كذبة تافهة هذه؟ لعنهم الله ماذا فعلوا بك يا باي البلاد؟"

....

بعد دقائق من ذياع الخبر في المدينة اجتمع الرجال في المقهى قال مصطفى

"ما يحصل غير معقول غير معقول فرنسا تحاول القضاء على الحركة الوطنية تعتقل الباي وتنفيه الى صحراء الجزائر وتزج بزعيمنا بورقيبة في السجن وتتّع قياداتنا وتمنع تجمعاتنا وتراقب حركاتنا هذا يكفي"الى متى هذا؟"

"اجل يكفي لقد مللنا"

"يزجون بباينا في الصحراء وينفونه لا نقبل بهذا"

"لن نرضى ولن نسكت نريد عودة الباي الى مكانه"

"سوف نخرج في مظاهرة"

قال سي عمر"يا جماعة يا جماعة !ارجوكم نريد بعض الهدوء خروجكم في مظاهرة في هذا الوقت لن يحل المشكلة بالعكس ستستغل فرنسا ذلك لاعتقالكم وسجنكم او مواجهتكم بالرصاص الحي وهذا لا يناسبنا الان عليكم بالتروي"

قال احدهم"يا سي عمر كيف نتروى وقد نفوا باينا خارج البلاد"

"علينا ان نقف مع الحزب الدستوري ونساند قياداتنا الوطنية الحكيمة في آرائها ومواقفها ولا نتسرع بالتصرف الطائش والانفرادي"

"سنؤسس الحركة المنصفية وندافع من خلالها عن الباي"

بعد ذلك تدخل القنصل الامريكي للحد من تتبعات سلطات الحماية للزعيم بورقيبة وتم في فيفري من العام 45 انعقاد مؤتمر عام شارك فيه ممثلون عن الحركة المنصفية والحزب الدستوري وعلماء جامع الزيتونة وبعض من الوطنيين المستقلين وتم خلاله الاتفاق على الطالبة بالحكم الذاتي وارجاع المنصف باي الى العرش...فضيقت السلطات الفرنسية الخناق على الصحافة الوطنية واستمرت في انتهاج سياسة القمع ضد الدستوريين حتى تأسست الجامعة العربية في شهر مارس من نفس العام فأوفد الحزب الزعيم بورقيبة الى القاهرة لتمثيل تونس وخلفه الزعيم صالح بن يوسف في رئاسة الحزب.

-الفصل11-

اوت 1945

طرقت رقية باب بيت سي عمر ففتحت لها خديجة الباب

قالت "مرحبا سيدتي"

قالت خديجة"اهلا"

"اظن انك زوجة سي عمر اليس كذلك؟"

"اجل انا هي ومن انت؟"

"انا جارتكم رقية"

"اهلا بك لماذا تقفين عندك ادخلي"

"هل فتون هنا؟"

"اجل انها في الداخل تفضلي"

"شكرا من لطفك"

"اجلسي سيدتي فتون...فتون..يا ابنتي تعالي السيدة رقية اتت من اجلك"

جاءت فتون راكضة نحوها وقبلتها بحرارة "كيف حالك سيدتي؟ كم اشتقتك"

"وانا ايضا اشتقتك"

سألتها خديجة"هل تشربين قهوة سيدة رقية؟"

"طبعا من حسن اخلاقك وكرمك سيدتي"

"لا اجلسي بجانب جارتنا العزيزة ولا تتركيها"

"اذا قلت لك لن تصدقي"

"ماذا؟"

"لقد انتهيت من قراءة الكتاب الذي اعطيتني اياه لفرحات حشاد"

"حقا؟ في هذه الفترة الوجيزة؟"

"اجل كم هو رائع يا ليت كل رجل تونسي يقرأه وخاصة الشيوخ الزيتونيين عليهم فهمه جيدا صدقيني سيجعل المرأة التونسية رائدة في مجال تحرر المرأة لكن المشكلة ان شعبنا لا يقرأ ولا يكتب والمرأة ايضا لا تقرأ ولا تكتب"

"صحيح ان التحاد الاسلامي النسائي يعمل على هذا ونحن نناقش هذه المسألة كل يوم تقريبا اننا نسعى الى ان تخرج المرأة في المظاهرات وتشارك في رفع الشعارات لنصعد في النسق النضالي للحركة الوطنية لتقوية مجابهة الاستعمار"

"جيد هل بامكاني الانضمام الى هذا الاتحاد سيدتي"

"لا يا عزيزتي انت مازلت صغيرة لكن بامكان السيدة خديجة القيام بذلك"

"تفضلوا هاهي القهوة "

"شكرا امي"

"شكرا سيدة خديجة"

"ما الذي بامكاني القيام به؟"

ترددت فتون في الاجابة فأسرعت رقية بالقول" كنت احدث فتون بشأن السيدة بشيرة بن مراد رئيسة الاتحاد الاسلامي النسائي التي تحاول تحرير المرأة من الفكر الظلامي المتشدد الذي يروجه الشيوخ الزيتونيين اللذين يأبون تحرير المرأة ومشاركتها في مقاومة االستعمار مدعين ان دورها مقتصر على الانجاب والتربية والعمل المنزلي متناسين انها انسانة وفرد في المجتمع لا يقوم التوازن في القرى الوطنية المناضلة الا بمشاركتها"

"لكننا منذ سنوات نعرف ان رجالنا دورهم النضال والمقاومة واخراج الاستعمار ما دخلنا نحن؟"

"اذا كان الامر كذلك لماذا نرى النساء الفرنسيات معلمات وممرضات وقريبا جنديات؟ هل هم افضل منا؟ ام اننا لسنا شعبا مثقفا ومتعلمتا مثلهم؟ اننا وان لم نكن كذلك فعلينا ان نصبح كذلك...لا يمكن مقاومة

اسلحتهم المتطورة بالعصي والسيوف والصدور العارية التي تعرض نفسها للرصاص علينا ان نفعل ذلك باعلم ولن نتمكن من الانتماء الى الحركة الوطنية الا عندما نتعلم كقياداتنا...المهم ..انا لم آتي لاجل هذا بل اتيت لكي اخبر فتون بأمر مفرح"

"حقا سيدتي؟ماهو؟"

"لقد قرأت قصائدك التي تي سلمتني اياها وقمت باصلاح اخطائها النحوية واخذتها الى دار النشر والطباعة التي وافقت على طبعها ونشرها لك لذا اتيت لاخبرك ولكي تقومي ببعض الاجراءات"

"حقا ؟ لا اصدق هذا سينشرون مجموعتي الشعرية؟ستصل كلماتي الى الناس ويقرئونها ؟ هل سمعت يا امي ساصبح شاعرة معروفة"

"ماذا يعني مجموعة شعرية؟ وهل سيوافق والدك؟"

"اجل انه موافق على ذلك لقد قرأ قصائدي قبل ان اسلمها الى السيدة رقية واعجبته مؤكد انه سيسر كثيرا بمعرفة هذا الامر ...شكرا جزيلا سيدتي"

"على الرحب علي الذهاب الان"

غادرت رقية البيت بينما دخل الطاهر ونادى والدته"امي ...امي اين انت؟"

قالت فتون"سيصبح لدي كتاب يا امي سيصبح لدي ديوان باسمي ويضم اشعاري وصورتي"

قالت خديجة "وصورتك ايضا؟ لو علم اخاك سيقتلك...نعم ياولدي ها انا في غرفة الضيوف فتون احملي الطبق الى مطبخ واغسلي الصحون والكؤوس"

"حاضر يا اماه"

"مرحبا طاهر ادخل يابني"

"امي من هي هذه المرأة السافرة التي دخلت الى بيتنا بلا همة ولا ستر؟ الا تلبس سفساري ككل النساء؟"

"انها جارتنا اليهودية رقية من نهج الباشا"

"يهودية؟ ماذا تفعل في بيتنا؟"

"اتت من اجل اختك انها صديقتها"

"اختي صديقة امرأة يعودية؟ولماذا جاءت الى هنا؟ "

"كي تهديها مجموعة شعرية او ماذا لم افهم كلامها جيدا انه شيء متعلق بالشعر والادب"

"امي انا جائع اريد اكلا ارجوك"

"هيا تعال سأسكب لك"

حضرت خديجة الطاولة وفتحت الراديو فإذا بالمذيع يقول"اعلنت القوتين المتحاربتين المحور والحلفاء صباح اليوم انتهاء الحرب الكبرى بينهما وذلك بخروج الحلفاء منتصرين على المحور...نبارك لكم مستمعينا عودة السلم والامان الى العالم ونبارك لامتنا العظيمة هذا المكسب"

...

في المساء وضعت رقية فنجان القهوة امام مصطفى وقالت:

"هل علمت بخبر انتهاء الحرب يا عزيز؟"

"سلمت يداك اجل علمت"

"ها قد انتصر الحلفاء مجددا لعنهم الله ما اشد قوتهم انهم لا ينهزمون على الاطلاق"

"كان ذلك بفضل الولايات المتحدة والا ما كانت هذه الحرب لتنتهي"

"اللا تظن ان فرنسا ستصبح قوية اكثر مما كانت عليه؟"

"فرنسا قوية منذ البداية لكنها خرجت من هذه الحرب الكبرى منهكة ومدمرة بالكامل وتبحث عن سواعد لاعادة الاعمار ثم ان ساعة تراجعها قد حانت في الكثير من الدول...ففي الشرق حصلت سورية وبلبنان على الاستقلال وغدا ستحصل تونس والجزائر عليه...لكن علينا في الاستمرار في الكفاح والنضال ...بإمكان فرنسا الرحيل بأية لحظة وعلينا الانقياد لزعمائنا ...لا اصدق نهاية الحرب بهذه السهولة...خرجت دول المحور مهزومة ...انتحر هتلر واعدم مسوليني ...وبرلين وباريس مدمرتان بالكامل...انه كالحلم لا يصدق"

"لقد حصدت هذه الحرب ارواح الملايين عسكريين ومدنيين وخلفت جرحى ولاجئين وبنى تحتية مدمرة واقتصاديات منهارة ...من قال ان الدول الاستعمارية الكبرى القوية ستصل ال هذا الحال"

"اجل هذا لا يصدق كم انتظر اليوم الذي سيأتي على فرنسا لتوقع فيه معاهدة انسحابها من اراضينا وتجمع جنودها الواحد تلو الاخر وتغادرنا وسط زغاريد نسائنا وهتافات رجالنا"

"ونقول لهم اخيرا AU REVOIR ...كما يقولون" ثم ضحكت وابتسمت له ماسحة شعر ذقنه بأناملها وقالت"عزيزي اريد منك شيئا ليس بالعسير"

"ماهو يا حبيبتي اطلبي عيناي البيك"

"فليبقك الرب لي اريد ان نتمشى سويا في شارع جول فيري حتى نصل الى محطة TGM...هل ترافقني؟"

"اجل لكن ماذا اذا رآنا احدهم سويا ان رجال المدينة يسهرون في هذا الشارع"

"لا يا عزيزي كل من يعرفوننا يسهرون في مقهى الشواشين او العنبة او في سوق اللفة"

"اعلم لكن لي اصدقائي هناك يعرفونني وسيتساءلون من تكونين"

"لا تقلق يا عزيزي لدي الحل"

"ماهو؟"

"سألبس السفساري وسأرتدي الخامة وحين يسألك احدهم عني قل له انني والدتك "

"ماذا امي؟ "

"اليس حلا جيدا؟ يا عزيز قلبي انت ابني الذي لم تنجبه بطني ...انت ابن فؤادي"

...

في المقهى قال المنصف"الان وقد انتهت الحرب وخرجت فرنسا منهكة وكمنهارة اقتصاديا ومدمرة بالكامل وتبحث عن سواعد لاعادة اعمارها اضحى ممكنا ان تغادر ارضنا علاوة على منحها الاستقلال لسوريا ولبنان وبعض الدول الافريقية "

قال عمر"لا تأملوا كثيرا فرنسا لا تزال قوية ومسيطرة على كل هياكل الدولة ووزاراتها ومؤسساتها"

قال مختار"معك حق يا سي عمر ولا تزال تسجن مناضلينا وتلاحقهم وتمنع انشطتهم"

"ولكنها غادرت الدول الاخرى"

"ليس حالهم كحالنا يا "منصف" فنحن فرنسا تحتلنا منذ اكثر من ستين عاما"

"ثم من قال ان دمار فرنسا سيمنعها من السيطرة علينا لاو ان امريكا ستسعى لتحريرنا؟ ان دعوتها لتحرير الشعوب شعار لا غير"

"صحيح قبل انتهاء الحرب وضعنا املنا في النازيين فها قد سقطوا وانتحر هتلر ...انسوا امر الاستقلال الان"

قال عمر"لاتبالغ يا مختار نحن سنحرر ارضنا بسواعد مناضلينا ومجاهدينا وبدماء شهدائنا وبسلاحنا لا بفضل امريكا ولا هتلر ولا احد"

"لقد كان محقا بورقيبة عندما حذرنا من الانسياق خلف النازيين ثم ان فرنسا لن تقدر على فعل اكثر مما فعلته بنا في العقود الستة الماضية نحن لدينا المقاومة السياسية والمسلحة وسنقاوم بمفردنا"

-الفصل 12-

1945/10/1

دخل نور الدين الى محل مصطفى فوجده ينظم اكياس بضاعته جلس على الكرسي متأسفا وقال:

"لقد خسرنا مناضلا وطنيا عظيما يا مصطفى ..توفي الشيخ الثعالبي""

قال مصطفى مصدوما:غير معقول رحمه الله وغفر له"

"الى متى سنبقى نتلقى الفاجعة تلو الاخرى والخسارة وراء الاخرى مللنا هذا الوضع يارب"

"ستفرج بإذن الله لا تيأس يا صاحبي"

"سيقيمون له جنازة وطنية في مراسم الدفن"

"هيا لنذهب ولنشارك في مراسم الدفن"

طرقت رباب باب بيت رقية ثم دخلت منادية "رقية اين انت؟"

قالت"ادخلي انا في المطبخ"

"لماذا باب بيتك مفتوح؟"

"فتحته لقطي عنتر كي يخرج للتنزه"

ضحكت رباب وقالت"طوبى له عنتر انه مستمتع بحياته اكثر منا"

"لا غير صحيح عزيزتي رباب فأنا سأذهب غدا صباحا لزيارة رواق لوحات تشكيلية في جبل سيدي بو سعيد ايروق لك مرافقتي؟"

"احقا ذاهبة الى جبل سيدي بوسعيد؟"

"اجل انه مكان جميل جدا وستحبينه بالتأكيد"

"انني اسمع عنه كثيرا ولم ازره ابدا كم اتمنى الذهاب اليه"

"اذا عليك مرافقتي "

"لا مانع لدي لكن ماذا يعني رواق لوحات تشكيلية ؟"

"يعني مكان يعرض فيه رسام ما جل لوحاته التي رسمها انه كالبيت ويسمى "رواق فني" لو ترين بيوت جبل سيدي بوسعيد الجميلة كلها مطلية بالابيض وشبابيكها وابوابها زرقاء وهو جبل مرتفع مطل على البحر وميناءه رائع...ستستمتعين حقا وسنذهب ايضا الى المرسى...سأوريك بلدية المرسى وقصور البايات وقاعات السينما و"قبة الهواء" وهي قصر احدى البايات القدامى مطل على البحر والشاطئ و"البولفار" والجامع الاحمدي والحواش والمدينة القديمة ومقام سيدي صالح ...انها مدينة رائعة وبحرها ساحر "

"هل حقا ستأخذينني لكل هذه الامكنة؟"

"طبعا اعدك بذلك غدا سنذهب باذن الله"

"غدا أي ايام الاسبوع؟"

"غدا الاربعاء ربابتي "

"بصراحة غدا لا استطيع"

"لماذا؟"

"سأقوم بزيارة سيدي محرز واقدم"الكسكسي" لليتامى والفقراء واجلس لسماع الاذكار في المقام الجليل

"شي لله يا سيدي محرز حسنا كما تريدين فلنؤجلها ليوم الخميس"

"ماذا قلت الان؟"

"قلت كما تشائين"

"لا قبل ذلك"

"قلت شي لله يا سيدي محرز"

"كيف توقرين سيدي محرز مثلنا وتتبركين به وانت يهودية ؟"

"نحن يهود تونس العاصمة ايضا نحب سيدي محرز ونوقره مثلكم"

"وكيف ذلك؟"

"منذ قرون قام سيدي محرز بحماية اليهود من الخطر الخارجي وقام بتوفير حي كامل لهم هنا في العاصمة ليسكنوه وهو حي الملاسين اليوم وقد كانت هذه اول مرة يسكن فيها اليهود والمسلمين في تونس في الحي نفسه وهو من سمح لطائفتنا بممارسة دينها بحرية ولم يجبر يهوديا واحدا على تغيير دينه ومنذ تلك اللحظة واليهود في هذه المدينة يوقرونه ويجلونه ويحلفون باسم هذا الولي الصالح مثلكم فأحيانا اقول "وراس سيدي محرز" افهمت الان؟"

"اتعلمين؟ لقد عرفت اشياء كثيرة بمجيئي الى العاصمة وعرفت ان اليهود لهم تاريخ عميق في المدينة"

"انها مدينتنا كما هي مدينتكم تماما ونحن نعشقها ونعيش فيها منذ قرون ...تونس مدينة الياسمين والاولياء الصالحين والجوامع والابواب والتعايش بين دين ودين ومن قال اننا غرباء عن هذه الارض فهو كاذب على نفسه وعلى التاريخ"

"فهمتك معكم حق"

"عزيزتي رباب ما رايك ان نذهب الى الحمام غدا مساء ونهتم بأنفسنا قبل الذهاب يوم الخميس الى جبل سيدي بوسعيد؟"

"فكرة جيدة سنذهب يوم الغد مساء سويا"

"جيد سآخذك الى حمام الذهب في "سيدي محرز" انه حمام عتيق وشهير وجميل جدا"

"موافقة"

...

بعد العشاء جلست رقية مع رباب في غرفة الجلوس يحتسيان كأسي شاي ويستمعان الى اغنية "اسمهان" "يا حبيبي تعال الحقني شوف ايه الي جرالي" قال رقية:

"كم هي جميلة هذه الاغنية في المرة القادمة سأضعها لمصطفى"

"اجل والله انها جميلة جدا قولي لي ماذا عنك ومصطفى؟كيف هي علا قتكما؟"

"انه الجنة يا رباب انني احمد الرب كل يوم على انني اعرفه وعلى وجوده في حياتي الذي يجعلني اصطبر على وحدتي ومعاناتي في هذا البيت وانسى قليلا محنة زواجي من اسحاق فليبقه الرب لي"

"امين"

سمعا فجأة صوت مفتاح في باب البيت فالتفتا قالت رباب:

"هل يملك مصطفى منفتاح البيت؟"

"لا انني من افتح له الباب في كل مرة ثم انه لا يأتي في هذه الساعة المتأخرة"

دخل اسحاق الى البيت وناداها من "الوسطية"

"رقية رقية اين انت؟"

"ياويلي انه زوجك اسحاق علي الذهاب"

وقفت رباب مسرعة وارتدت الحايك وغطت وجهها بالخامة فقالت رقية "مابك لماذا ستذهبين؟ اسهري معي قليلا لا تخشيه لن يفعل لك شيئا انه يعرف انك جارتي وصديقتي"

"لا رقية ارجوك علي المغادرة اخجل من البقاء وزوجك في البيت"

"كما ترغبين"

قال"اين انت رقية؟"

"نعم يا اسحاق انا في غرفة الجلوس هل اتيت؟ اهلا بك عزيزي"

قالت رباب "تصبحين على خير يا رقية سنلتقي غدا

حسنا انتبهي على نفسك في الطريق يا رباب"

مرت بجانب اسحاق مطرقة رأسها مخفية وجهها بالخامة وهو ينظر اليها مليا ثم قال لرقية:

"من هذه؟"

قالت"انها صديقتي رباب"

"هل تسهر عندك كل ليلة؟"

"لا ليس كل ليلة الليلة فقط طلبت منها ان نتناول العشاء سويا وان تسهر في بيتي لقد اصبحت امل اثناء غيابك ياعزيزي لأشهر طويلة من السفر"

وضع القبعة عن رأسه وقال

"لقد قلت لك ان اجلب لك خادمة تساعدك في اعمال البيت وتؤنسك فرفضت"

"لا اريد امرأة تساعدني في عملي فأنا وحدي من اعرف كطيف انظف بيتي وارتبه ثم اذا فعلت هي ذلك فبماذا سأتسلى انا؟"

"حسنا حسنا كما تشائين انا متعب كثيرا يا رقية طريق السفر كان طويلا والبحر اصابني بالدوار "

"هل اليونان جميل؟"

"كثيرا يا عزيزتي في الصائفة القاجدمة سنذهب في عطلة الى هناك لديهم نزل فخمة وشطآن نظيفة واماكن ساحرة"

"وتونس ايضا ساحرة"

"اريد ان آكل حضري لي العشاء واجلبي لي "الابريق"و"القصعة" لاغسل قدماي "

"حاضر"

...

بعد العشاء دخل اسحاق الى غرفة النوم فوجد رقية امام المرآة جالسة لتمحو مساحيقها وقد بدا جسدها بارزا في ثوب النوم الخفيف ...اقترب منها وقال معانقا اياها من الخلف

"اغمضي عينيك يا عزيزتي"

"لماذا؟"

"اغمضي عينيك لان لي هدية لاجلك"

"حقا؟ ماهي ؟"

البسها طوقا من الياقوت اللامع ثم قال لها "افتحي الان" فذهبت لجماله وبريقه ولمعانه وابتسمت صارخة

"ماهذا؟ كم هو جميل وفخم هل هذا لي حقا؟"

اجل لكن ليس لوحده هذه علبة تحوي اقراطا وخاتما من الياقوت الخالص"

"غير معقول كم انت كريم يا عزيزي"

قبلته قائلة "لاشكرك كثيرا يا عزيزي انه جميل حقا"

"لكن شكرك هذا لي غير كاف يا عزيزتي"

اخذها الى السرير وأطفأ الاضواء ثم نام على صوت انفاسها ونامت عالى صدره

...

في الصباح ...ذهب عمر الى بيت رباب وقدم لها ورقة...نظرت اليه باستغراب سائلة اياه:

"ماهذه الورقة؟"

"انها حجة"

"حجة؟"

"حجة ملكيتك للبيت"

"ملكيتي للبيت؟أي بيت؟"

"بيتك هذا الذي تسكنينه انني اشتريته لك وباسمك وانت الان تمتلكينه لتوفري على نفسك ثمن الكراء كل شهر على الاقل تحتفظين بأموال عملك وشقائك لنفسك كي تستمتعي بها"

"لكن لماذا؟"

"لماذا ماذا؟"

"لماذا اشتريته لي؟"

"قلت لك لتتمتعي بمالك ولا تعطينه لصاحب البيت كل شهر"

"هل لي ان افهم لماذا تفعل معي هذا؟ هل طلبت منك ان تشتري لي بيتا؟.ماذا سيقول الناس اذا علموا انك تفعل معي كل هذا؟ هل سيقولون انك تريد فعل الخير مع امرأة وحيدة ليس لها احد؟ ماذا سيقولون عني؟"

"رباب مابك؟ وهل ستصغين لاقوال الناس واحاديثهم التي لا تنتهي؟ انسي امرهم هذا البيت بيتك وعلى ملكك ولا احد له الحق ان يقول عنك كلمة افترضي انك بقيت تعيشين فيه على وزجه الكراء ثم اتى صاحبه يوما ليخرجك منه ويكتريه لاحد غيرك ماذا ستفعلين؟ الى اين ستذهبين؟ هل ستفترشين عتبة البيت؟ ام ستتشردين في الشوارع؟ انت امانة في عنقي يا امراة لانك لا تعرفين احدا غيري في هذه المدينة وعندما اتيت من القيروان لم تطلبي مساعدة احد غيري لذا فأنا مسؤول عنك...هذه حجة الملكية احتفظي بها جيدا ومبارك لك البيت انا ذاهب الان"

اقترب مكن السقيفة ليغادر المنزل فنادته"سي عمر"

التفت اليها قائلا "ماذا تريدين"

اقتربت منه ووضعت في جيب سترته السوداء "حرزا" قال لها "ماهذا يا رباب؟"

"انه حرز لك ليصونك من العين ويحفظك من الشر ويدرأ عنك كل من اراد لك السوء"

"وهل انت ايضا تؤمنين بهذه الممارسات؟"

"ولم لا اؤمن ؟ اذا كان ذلك ليحفظك الله ويجعلك فرعايته فأنا مستعدة لاقوم به" وبكل شيء لاجلك"

"حسنا شكرا لك عن اذنك"

"انتبه لنفسك"

..

في المساء اتت اليها رقية ليذهبا سويا الى الحمام

وفي طريقهما اليه قالت رباب

"لو تعلمين ماذا حصل معي اليوم رقية"

"اخبريني ماذا حصل؟"

"لقد اشترى لي سي عمر البيت الذي اسكنه وسجله باسمي واعطاني حجة الملكية"

"غير معقول هل فعل هذا حقا؟يا الله ما اكرم هذا الرجل انه بيت كبير وباهض الثمن"

"ليست هذه المسألة التي افكر فيها"

"وبماذا تفكرين"

"لماذا تراه يفعل كل هذا لي؟"

"ربما سيجهز نفسه للزواج بك ويريدك ان تسكني في بيت بمفردك كي لا تسببي له المتاعب انت وزوجته خديجة" ثم ضحكت فقالت رباب"رقية لست امزح اشعر بانني وقعت في الحب واخاف ان يكون هو كذلك لا اريد ان اسبب له المشاكل كيف سيتزوج امرأة ثانية واولاده قد بلغوا من الكبر عتيا؟

"وماذا في ذلك؟ اين المشكلة اذا كان هذا الرجل يريدك على سنة الله ورسوله احمدي الرب ليلا نهارا على انك فزت برجل شهم ووقور وكريم الا يكفيك العذاب والفر واليتم والتعنيف اللذين عشتهم في القيروان؟ ربما اراد الله ان يعوضك عن كل ذلك...اتكفرين بنعمة الرب التي اتت اليك من السماء؟"

"معاذ الله لا اكفر بذلك انها نعمة حقيقية لكنني لا اصدق ذلك هل انا رباب اليتيمة الفقيرة الغريبة في هذه المدينة يعوضني الله برجل لم احلم به حتى في الخيال يأتيني منن السماء كهبة من الله"

"انك طيبة القلب وتستحقين رجلا مثله وافضل...على الاقل تؤسسين عائلة وتنجبين اولادا لست مثلي انا لا انجب ولم اتزوج من احب"

"ولماذا لا تقولين ان العيب من زوجك وليس منك؟"

"لا اعلم على كل انا لا اريد الانجاب منه لانني لا اريده ان يكون ابا لاولادي دعينا من هذا الموضوع الان واخبريني هل فعلت ما اوصيتك به وجلبت معك "الفوطة" و"البشكير" و"الطاسة"و"الكاسة"و"قطعة الصابون الاخضر" "والطفل" و"الثياب"؟

اجل فعلت

"جيد والان مارأيك ان احدثك عن قصة مسلية وخرافية انتشرت بين اجدادنا عن حمام الذهب الذي سنذهب اليه سويا الان"

"حدثيني"

"هذا الحمام يا رباب يسمى ب"بلاع الصبايا" وبرأيك لماذا يسمى هكذا؟"

"لماذا؟"

"هناك قصة توارثتها جداتنا تقول بأن الحمام كان بيتا لا يسكنه احد الا امرأتين وحيدتين ام وابنتها دخل عليهما مرة رجلين ادعا انهما لا يجدان مأوى لهما في الليل وانهما غريبين عن المدينة فطلبا النوم عندها وحين قبلت بذلك وضع هؤلاء الرجلان سحرا عند عتبة البيت ثم اختفيا وحين دخلت العجوز الى غرفتهما التي دخلاها ليناما لم تجدهما ولكنها وجدت اكياسا من الذهب فخرج لها مارد من الجان وقال لها لا تأخذي الا ما يكفيك ولكنها اخذت تعبأ اكياسا كثيرة دون ان تعبأ بوصية المارد فانشق الحائط وابتلع ابنتها فأخذت العجوز تبكي بشدة وندمت على طمعها فقالت لها ابنتها ب"يا اماه اجعلي هذا البتي حماما حتى تأتي الصبايا لزيارتي دائما" فنفذت والدتها وصيتها وهدمت البيت بفضل ذلك الكنز وبنت عوضا عنه حماما كبيرا وواسعا وجميلا ومنذ ذلك الوقت يقال ان كل صبية تدخل هي الاولى او الاخيرة في الحمام ترى كومة من الشعر او كف يد مخضب بالحناء في تلك الحجرة"

"غير معقول ما هذه القصة المخيفة اخفتني من هذا الحمام دعينا نعود الى البيت"

ضحكت رقية وقالت"لا تخافي انا برفقتك لن تري شيئا من هذا انها محض خرافة...ها قد وصلنا في المرة القادمة سأحكي لك قصة "حمام السيودة" و"حمام الطابع"

"ياويلي"

"هيا ادخلي يا شجاعة"

....

في المساء كان سي عمر في غرفته يغير ثيابه قال لزوجته

"بعد ان كان الجميع يظنون ان المحور سينتصر في اللحرب الكبرى هاهو قد هزم وانتصر الحلفاء واحتفلت فرنسا وبريطانيا في بلادنا بانتصارها ...العديدون ظنوا انها ستضعف لخروجها مدمرة بالكامل جراء الحرب لكننها نراها كل يوم تسترجع قوتها وتزداد شراسة وضراوة كان الله في عون المدنيين الضحايا"

"فليكن الله في عونهم يا سي عمر هيا ارتدي جبتك"

ساعدته خديجة على ارتداء جبته ثم قالت له

"هيا يا سي عمر الى الطاولة لنتناول العشاء

قال"الحمدلله على كل حال هيا ياخديجة تعالي برفقتي"

قالت"لحظة واحدة سأرتب ثيابك وآتي "

قال "حسنا"

علقت خديجة بنطلون عمر ثم اخذت سترته وتفحصت جيوبها فوجدت "حرزا" فاستغربت وتساءلت عمن يكون قد اعطاه اياه فناداها من على الطاولة"هيا يا خديجة تعالي واسكبي لنا الاكل"

قالت "قادمة"

...

في الصباح كان عمر في بيت الخلاء بينما نادت خديجة ابنتها

"فتون...فتون تعالي"

"نعم يا امي"

"تعالي اريدك في شيء"

"ها قد اتيت بماذا تريدينني يا امي؟""

"انظري"

ما هذا؟"

"لقد وجدته في سترة ابيك التي لبسها البارحة ترى من اين له هذا؟"

"لا اعرف لعله اشتراه"

"فتون أغبية انت؟ هكذا اشياء لا تشترى انما تقوم النساء "الشيخات " بكتابتها بطلب من احدهم"

"لعله ذهب الى "شيخة " لتكتبه له"

"لا مستحيل اعرف والدك منذ ثلاثين عاما لم يؤمن يوما بهذه الاشياء انه اذا اراد تحصين نفسه حمل معه كتاب القرآن كيف يفعل هذا الان؟"

"لعله يكون هدية من احد اصدقائه"

"حمقاء اشياء كهذه لا يفعلها الا النساء"

"نساء؟ من اين لابي النساء؟"

"هذا ما يحيرني ويجعل اعصابي تحترق"

"لا تحتاري يا اماه ارجوك لا تجعلي الافكار السيئة تحوم حولك ابي لا يلتقي بالنساء ولا يتحدث واياهن انا اعرفه جيدا اسأليه لتتأكدي"

"اسأله؟"

"نعم لعله يعطيك اليقين لكن لا تشكي فيه"

دخل عمر الى الغرفة وقال"فتون؟ ماذا تفعلين هنا؟"

"ابي؟ لاشيء فقط اتيت لاطلب من امي ان تذهب معي الى سوق القماش كي اشتري بضعة قصاصات لفساتيني الجدد"

"هل تريدين نقودا؟"

"لا شكرا يا ابي معي ما يكفيني"

"جيد اذا انزلي الى المطبخ وجهزي لنا فطور الصباح علي ان اغادر سريعا"

"حاضر يا ابي"

"خديجة مابك؟"

"ماذا؟ لا لا شيء يا سي عمر سأنزل الى المطبخ لتحضير الفطور

...

على الفطور

قالت فتون"لقد وعدتني السيدة رقية ان تشرف على نشر مجموعتي الشعرية وقد قالت لي انها اخذتها الى "دار النشر والطباعة"

قال"جيد اذا سنرى اسمك قريبا على كتاب"

"اجل انه ديوان"

"احسنت"

كانت خديجة شاردة الذهن ولم تأكل شيئا نظر اليها سي عمر وقال

"ما بك يا خديجة؟ لماذا لا تأكلين؟"

"نعم؟ ها أنا آكل يا سي عمر على فكرة سي عمر...وجدت هذا الحرز في جيب سترتك السوداء التي ارتديتها البارحة ...هل لي ان اعرف من اين لك هذا الحرز"

بقي ينظر اليها في صمت وقد صدم بنسيانه له في جيب سترته الاخرى بدل ان يضعه في جيب سترة اليوم"

"لم تجبني يا سي عمر من اين لك به؟على حد علمي انك لا تؤمن بهذه الاشياء"

"اجل لقد اوصيت صديقي على ان يجلبه لي من عند امرأة "شيخة" تكتب الحرز لكي يحصنني"

"لكنك في العادة لا تؤمن بهذه الاشياء"

"بلى غيرت رأيي واصبحت اؤمن بها...علني ارد عن نفسي الاذى فبين الفينة والأخرى تمطر القنابل سماء المدينة العربي او شارع جول فيري او ساحة القصبة"

"سلامة روحك وعمرك يا سيد امري وغطاء بيتي وستري"

"اذا علي ان اخذ هذا الحرز منك واتركه معي دوما"

"حسنا خذه يا سي عمر حماك الله ورعاك"

"علي الذهاب الان في امان الله"

"في رعاية الله " ثم قالت في نفسها"قلبي لا يمكنه ان يصدقك يا سي عمر"

ثم نادت ابنتها وقالت"فتون جهزي لي غرفة الضيوف" قالت "لماذا يا امي هل لدينا ضيوف؟"

"اجل بهيجة زوجة سي مختار وفطومة زوجة سي المنصف وحبيبة زوجة سي الصحبي صاحب مقهى الشواشين سوف يأتين لزيارتي هيا بسرعة انا سأبعث اخاك لشراء الحلويات من "الحلواني" و"الشروبو" من "العطار"

بعد ان جاءت النسوة الى البيت ودخلن الى غرفة الضيوف وسط ترحيب السيدة خديجة وفتون طرق الباب فذهبت فتون لفتحه دخلت صديقتها وفاء ابنة مختار فقالت لها "اهلا يا فتون"

"وفاء؟ عزيزتي اشتقتك اين كنت كل هذه الفترة؟"

"لقد انشغلت بعرس اختي الكبرى انا وعائلتي فلم اقدر على المجيء اليك"

"هل حقا تزوجت اختك الكبرى؟"

"اجل كان عرسها في باجة لان زوجها اصيل تلك المدينة"

"مبارك لكم هيا ادخلي عزيزتي"

كان الطاهر ذاهبا نحو السقيفة ليخرج لشراء الحلويات فالتقى بهما وهما في باب السقيفة قالت وفاء "يا ويلي" ثم غطت وجهها باللحفة فقالت لها فتون ضاحكة"لا تخجلي من اخي انك رأيته عدة مرات"قال الطاهر "لا تخجلي يا وفاء ادخلا يا فتيات الى الغرفة انا ذاهب لشراء الحلويات للضيوف"

ادخلت فتون وفاء الى غرفتها وقالت"لو قلت لك لن تصدقيني ان السيدة رقية جارتنا في نهج الباشا اخذت مجموعتي الشعرية وقرأتها ووعدتني بأن تنشر لي ديوانا"

"حقا؟غير معقول لا اصدق"

"صدقيني كما قلت لك قريبا سينشر لي ديوان شعري وعليه اسمي"

"ساصبح صديقة شاعرة مشهورة اذا؟ ما اجمل هذا الخبر"

-الفصل 13-

في الليل....

كانت رقية نائمة على سريرها عندما طرق مصطفى باب بيتها

اخذ يطرق مرات عديدة فاستفاقت على صوت طرقه وذهبت لتفتح له قال لها"اين كنت طرقت الباب مرات عديدة"

"اسفة ياعزيزي كنت نائمة"

"ما اجمل هذا الفستان الاحمر"

"انه فستان حريري اشتراه لي اسحاق من ايطاليا"

"ورائحة عطرك تزيدك جمالا"

"لقد وضعته من اجلك يا عزيزي انه شانيل"

"ما هذه الطاولة؟ شاي وفواكه وحلويات؟ من كان عندك؟"

"لقد كنت ساهرة مع صديقتي رباب اجلس يا عزيزي هل تريد عشاء؟"

"لا لقد اتناولت العشاء مع احد اصدقائي في بيته"

وضعت صحن الموسيقى فتعالى صوت "ام كلثوم" وزهي تشدي اغنية "افرح ياقلبي " وضعت امامه الفواكه وزينت الطاولة بالشموع ثم اقتربت اليه مبتسمة وقالت "كم اشتقتك ياعزيز" قال "وانا ايضا اشتقت اليك كثيرا لكن زوجك كان في البيت فلم اقدر على المجيء لزيارتك" "انا الان بمفردي اطمئن انه في السفر كعادته اتعلم لماذا وضعت هذه الاغنية؟" "لماذا؟" "لان فؤادي يفرح برؤيتك في كل مرة اراك فيها انك نعمة شملتني بها السماء لا حرمني الله اياك"

"ومتن لي غيرك يا عزيزتي ادامك الله لي انت ملجئي وملاذي وسط هذا البؤس"

"ابعد الله عنك البؤس ياعزيزي"..عزيزي مصطفى"

"نعم"

"هل لي بسؤال لك؟"

"طبعا"

"ما رأيك في المرأة؟"

"المرأة؟ المرأة مخلوق عجيب"

"وكيف ذلك؟"

"دهاءهن مخيف ذكيات دون ان تقلن ذلك لكن قوة جبارة فلا تتعبن ولا تيأسن في كل ما تقمن به ...لكن لماذا النساء هنا في تونس لا يجدن شيئا عدا اعمال البيت ؟"

"كيف تتساءل عن هذا وانت رجل من الرجال اللذين كانوا سببا في ذلك ان شيوخنا الزيتونيين وكل من يتتلمذ على ايديهم يقولون ان المراة عورة عليها الا تغادر البيت الا ملتحفة والا تمشي في المظاهرات والا تشارك الرجال في النضال...الا ترى كل هذا مجرد قيود يضعونها ليتركوا النساء تحت السيطرة وقيد التحكم...وكل هذا يمنع وطننا من التحرر فنحن لدينا دور كبير في تحرير الوطن

واذا مكنتم النساء من ان يدرسن ويتحررن ربما يتقنن اشياء كثيرة حتى افضل منكم حتى"

ربما لكنني لست مع الشيوخ الزيتونيين في وجهة نظرهم ...جميل ان يتعلم النساء ويدرسن ويشاركننا النضال ورفع الشعارات والمظاهرات"

"هذا ما نعمل عليه في الاتحاد الاسلامي النسائي اننا نسعى لان نقنع الرجال ان المرأة مخلوق كامل غير ناقص وان لها ما للرجل وعليها ما عليه وان الرب قد خلقها من ضلع ادم لتكون له شريكة في كل جوانب الحياة وعلينا ان نسعى لتعليم المرأة واخراجها من سجنها المنزلي كي تنهض بمجتمعها وتشارك في بنائه تماما كالرجال وهذا ما قرأته في كتاب فرحات حشاد العظيم ان لديه افكارا جميلة وقد اثبت ان الدين الاسلامي لا يحول دون ذلك بل العقول المتحجرة هي التي تمنع ذلك"

"معك حق يا عزيزتي ارى ان تحرير المرأة من الاولويات لتحرير بلادنا من الفرنسي ...عليهن ان يتعلمن ويعين بأهمية تحرير وطنهن تماما مثلك ياعزيزتي...فليت كل النساء مثلك انت." فجأة سمعا صوت باب البيت يفتح التففت رقية مرتعدة وقالت:"اتمنى الا يكون اسحاق قد اتى" ثم سمعته يناديها فقالت "ياويلي أي مصيبة هذه اختبأ يا مصطفى وخبأ معطفك" ناداها اسحاق "رقية" فقالت"عزيزي اسحاق هل اتيت من السفر؟" "وهل مازلت لم تنامي بعد؟" "اجل كانت صديقتي رباب ساهرة عندي منذ قليل""انا متعب جدا رقية اريد النوم" "السرير مرتب عزيزي غير ثيابك ونم الا تريد عشاء؟" "لست جائعا تناولت العشاء مع صديق لي تعالي ونامي بجانبي " " حسنا سأغير ثوبي اولا"

بقيت رقية تنتظر نوم زوجها ثم ذهبت الى غرفة الجلوس فوجدت مصطفى قد غادر فتنفست الصعداء وعادت الى غرفة نومها.

صباحا استيقظ اسحاق وجهز نفسه لمغادرة البتي ذهب الى غرفة الجلوس ليأخذ اوراقا من الخزانة فاذا به يجد طاقية على الاريكة نسيها مصطفى قبل مغادرته فصرخ بغضب" رقية.رقية تعالي سريعا" "نعم يا اسحاق ماذا تريد؟" "لمن تكون هذه الطاقية؟" صدمت رقية وارتعدت لرؤيتها قائلة"لقد قلت لك ان رباب كانت ساهرة عندي ليلة البارحة" "وهل رباب تلبس طاقية رجالية؟" "لا انها قد صنعتها لتبيعها ولكنها نسيتها هنا اظن انك تعرف انها تحيك القبعات وهذه الاشياء المشابهة" "حسنا انا علي الذهاب ذكري رباب في طاقيتها" "حاضر"

-الفصل 14-

اوت 1946...

كان الرجال مجتمعين في المقهى مساء يتبادلون اطراف الحديث بعد الافطار..قال مختار"لقد شهد النضال الوطني انعطافة كبرى بتأسيس الاتحاد العام التونسي للشغل على يد العظيم فرحات حشاد في فيفري الماضي فمنذ ذلك الوقت اضحى لدينا اتحاد قوي وكبير يضم قطاع الصناعة والتجارة والفلاحة وتأسست لدينا نقابات لتدافع عن حقوق العمال في جل هذه القطاعات" قال احدهم "صحيح لكن اتحاد الحزبين القديم والجديد ضمن جبهة وطنية واحدة مع الحركة المنصفية وشيوخ الزيتونة والمنظمات المهنية واعضاء المجلس الكبير هو بدوره سيضيف القوة لنضالنا الوطني وسيجعل البلاد متحدة بكل اطيافها ضد الاستعمار بحيث يعمل الجميع على نفس الاهداف وبنفس النسق وهذا وهذا سيجعل ضغطنا على السلطات الفرنسية سهلا.ستكون قراراتنا قوية وصارمة منذ الان" جاء اسحاق الى المقهى وسلم على الرجال فرحبوا به فرحين وقالوا له "ماهذه المناسبة الجميلة اسحاق معنا في مقهى الشواشين لم تجلس في حياتك الا في مقاهي روما وشارع باريس او شارع جول فيري ماالذي حصل الان حتى غيرت وجهتك؟" فضحك قائلا"اشتقت اليكم فقلت لنفسي لماذا لا اشارككم سهراتكم الجميلة؟" " اسمعت يا سيد اسحاق ان الوطنيين بكل اطيافهم وانتماءاتهم سيقومون بعقد مؤتمر ليلة القدر أي قبل ثلاثة ايام من العيد سيرفعون فيه سقف مطالبهم هذه المرة وسيواجهون الاستعمار بقوة ؟"" "هذا جيد في الحقيقة لم اسمع الا اللحظة لكن هذا يبدو جيدا في التاريخ النضالي للوطنيين يبدو انها انعطافة في المسيرة النضالية"

...

صباحا استيقظ الطاهر وذهب الى خديجة فقال لها" امي اريد امن احدثك في امر مهم" "تفضل يا ابني قل" " في الحقيقة هناك فتاة تعجبني واريد ان اتزوجها واريدك ان تحدثي والدي في هذا الامر كي اعرف رأيه فيه" "ولماذا لا تخبره انت؟" "لا ارجوك يا امي اخبريه انت" "ومن هي هذه الفتاة؟" "انها وفاء صديقة اختي فتون ابنة سي مختار " "حقا؟ انه اختيار صائب سيسعد والدك بذلك اذا اخبرته بالامر فهو صديق سي مختار منذ الطفولة واما عني فسأتحدث مع والدتها في الامر ...لا تقلق بشأن هذا يا عزيزي الليلة بعد الافطار ساخبر والدك بكل شيء" "اتمنى ان يوافق والديها" "اطمئن لن يجدا افضل منك زوجا لابنتهما"

في الاثناء ذهب اسحاق الى الضباط الفرنسيين واعلمهم بخبر انعقاد المؤتمر ليلة السابع والعشرين من رمضان الجاري وقدم لهم اموالا لمؤونة الجيش ولتخزين السلاح اما عن رقية فذهبت قبل الافطار الى بيت رباب وقالت"اتيت لاتناول العشاء معك الليلة" "اهلا بك لكن كما تعلمين عليك انتظار اذان المغرب فنحن صائمون لاننا في شهر رمضان" اعلم ذلك ولهذا اتيت لاتذوق طعامك الشهي رائحته لذيذة اشتممتها من نهج الباشا" ضحكت رباب فقالت رقية" لو تعلمين ماذا حصل معي البارحة بعد ان غادر مصطفى بيتي لقد راى زوجي اليوم صباحا طاقيته التي نسي ان يأخذها معه على الاريكة في غرفة الجلوس فقلت له انك من صنعتها كي تبيعها فنسيتيها عندي " "ياويلي ما هذا الخبر؟" "اخشى انا يكون

قد عرف انني على علاقة برجل غيره يارباب واخشى ان يبحث عنه ويسعى لمعرفة من يكون" ...عند الافطار...اتى سي عمر الى البيت وقال لخديجة "هاقد ايتت اليك بالقطايف و"ووذنين القاضي" و"المقروض" والحلويات للسهرة "بقلاوة" و"كعك ورقة" و"قارورة روزاطة" علي ان اتناول الافطار سريعا ثم سأذهب الى المؤتمر الذي سيعقدونه قالت" لا يا سي عمر لن تذهب الى المؤتمر" "لماذا؟" "هناك امر اهم علي ان اخبرك عنه في السهرة ارجوك ابقى هنا ولا تذهب الى المؤتمر انه امر مهم جدا ويخص ابنك" "ماهو؟" ضرب المدفع ورفع الاذان فقالت خديجة"سأحدثك بعد الافطار"

في الغد صباحا ...كتبت كل الصحف والجرائد عن المؤتمر الذي تم عقده "مؤتمر ليلة القدر-السابع والعشرون من رمضان عام 1946" قالت رقية لرباب "اسمعي يا رباب ماذا كتب في هذا المقال:ان المقاومة ولاول مرة ترفع سقف مطالبها من الاستعمار الفرنسي وتطالب بطريقة مباشرة بالحصول على الاستقلال هذا وقد حضر في المؤتمر فرحات حشاد عن الاتحاد العام التونسي للشغل وبسيس عن الجالية اليهودية والشيخ الفاضل بن عاشور عن الزيتونيين مع قيادات الحزبين ..جميل لقد طالبنا بالاستقلال للمرة الاولى في التاريخ يا رباب "

فجأة طرق باب بيت رباب فذهبت رقية وفتحت الباب فاذا به سي عمر نظر اليها متأسفا وقال:"رقية ؟ عرفت انك هنا لانني لم اجدك في بيتك" "سي عمر؟"تفضل" "اسف لكن جئت لاخبرك شيئا لن يسرك" "ماهو؟" "البارحة في مؤتمر ليلة القدر القت الشرطة الفرنسية القبض على 46 شخصا ووقاموا باعتقالهم بعد ان اقتحموا مقر المؤتمر قبل انتهائه بلحظات" "وماذا وراء كلامك هذا ياسي عمر؟ هل كان مصطفى بينهم؟" "للاسف اعتقل معهم" "لاغير معقول لا اصدق هذا ماذا فعل لهم؟ لماذا اعتقلوه؟" اخذت رباب في تهدئتها بينما اخذت رقية تلطم وجهها وصدرها"سجنوه يارباب.سجنوه حبيب عيناي وسند ظهري سجنه الفرنسيون الانذال الكلاب .ياويلي.ليس لعائلته احد.ليس لوالدته واخوته احد يعيلهم غيره." قالت رباب" اهدئي ياعزيزتي.هدئي من روعك ارجوك لعنهم الله"قتال عمر "لقد سجنوهم في السجن المدني بتهمة التخريب والتحريض على الاعمال التدميرية انا اسف على هذا الخبر علي ان اذهب" قالت رقية"سي عمر" "نعم؟" "من احخبرك بقصتي معه؟ "انها رباب لكن اطمئني انه سر اعز اعز اصدقائي مصطفى ولن اخبر به احدا".

-الفصل15-

بعد شهر...جاء مختار الى دكان سي عمر وقال له "لماذا ناديتني ياسي عمر؟ وماهذا الموضوع المهم الذي ستحدثني فيه؟" "اهلا بك ياسي مختار اجلس اولا هل تشرب شيئا؟" " لا انني على عجلة هيا اخبرني" "باختصار اردت ان اخبرك شيئا يخص ابنتك وفاء حفظها الله" هل تقصد ان ابنك طاهر يريد ان يطلب يدها منا؟اخبرتني زوجتي بعد ان حدثتها زوجتك الكريمة في الامر.نحن موافقون ولقد بدأنا في تجهيز الفتاة وتحضير ما يلوزم من فساتين و"جاهز العروس" لتذهب الى بيت زوجها" "يعني انكم بدأتم التحضيرات؟ هذا جيد""بامكان ابنك ان يتقدم لها ويطلب يد كريمتنا متى شاء وسنحضر كل ما يلزم للعرس" " اذا سأهتم انا بأمر شرائه البيت والمصوغ" "بارك الله فيك يا سي عمر" ...
كانت رقية جالسة بمفردها في البيت لحظة طرق باب بيتها فذهبت لفتحه بتثاقل فإذا ابها ترى حبيبها مصطفى امامها صرخت بفرح"مصطفى ؟ هل غادرت السجن؟" "اجل لقد افرجوا عن المعتقلين" "عزيزي يال جمال هذا اليوم.حمدا لله.اشكر الله على رؤيتك ادخل يا حبيبي" ذهبت الى بيت رباب بعد

ان غادر مصطفى بيتها وقالت لها بسرور"لقد افرجوا عنه يا رباب لقد غادر السجن" "مبارك لك" ثم تعالت زغاريد رقية في البيت ثم قالت:"رباب نسيت ان اخبرك ان عائلة سي عمر لديهم عرس ابنهم الطاهر الاسبوع القادم وقد بعثت لي فتون دعوة لحضور حفل العرس واريد ان ترافقيني" "كيف لي ان ارافقك انهم لا يعرفونني " "سيعرفونك عندما تأتين معي" "بصراحة اخاف ان يراني سي عمر فيغضب" "بالعكس سيفرح بحضورك" "ربما اذا رآني الجيران يقولون للسيدة خديجة ان زوجها اشترى لي البيت.ماذا سأفعل عندها؟" وانى لهم ان يعرفوا؟ لا تقلقي عزيزتي لا احد سيخبرها" وبينما هما كذلك طرق سي عمر باب البيت وحين دخل قال لرباب "لقد اتيت لك كي ادعوك لعرس ابني يوم الثلاثاء القادم احرصي على ان تكوني هناك.وانت ايضا سيدة رقية " "لقد شرفتني ابنتك رباب فتون حماها الله بدعوة باذن الله سآتي ةساجلب معي رباب"

غادر"سي عمر" فقالت رقية" سننزل الى سوق القماش ونحضر فستانين لكلينا لاجل العرس" وبعد ان عادت رقية الى بيتها دخل اسحاق قائلا:"هيا تفضلي يا مبروكة ادخلي" قالت رقية مستغربة "مرحبا اسحاق من مبروكة؟" "هذه خادمتك الجديدة" "ماذا خادمتي؟" "اجل لقد جلبتها لك لمساعدتك في الاعمال المنزلية ولتؤانسك كي لا تشعري بالوحدة بعد هذا" "لكنني قلت لك انني لا احتاج لخادمة انا اعرف كيف اقوم بشؤوون منزلي بمفردي" قال للخادمة"مبروكة اذهبي وغيري ثيابك وابدئي بأعمالك. رقية هذا ليس وقت الحديث بدل ان تشكرينني لانني افكر في وحدتك ولا اريدك ان تبقي وحيدة في هذا البيت الكبير" "لكنني لا اريد خادمة ترافقني في البيت طوال الوقت" "رقية انا لدي عمل انني على عجلة في امان الله" جلست على النافورة وسط باحة البيت وقالت في نفسها"ايعقل ان يكون قد جلبها لي لمراقبتي بعد ان راوده الشك في امري؟" طرق الباب فجأة فذهبت مبروكة لفتحه قالت لها رقية:"ابقي انت انا سأفتح الباب ومنذ اليوم اعتبري ان فتح الباب ليس من واجبك انه من واجبي انا" فقالت مبروكة"حاضر" ذهبت رقية لفتح الباب فوجدت مصطفى امامها امسكت بيده وادخلته واغلقت باب السقيفة قائلة"لو تعلم يا مصطفى ماذا حصل معي في المرة الاخيرة" "ماذا حصل؟." "لقد نسيت طاقيتك على الاريكة في المرة الاخيرة فرآها اسحاق واظن انه شك في امري فبعث لي بخادمة لتراقبني وادعى انه يريد منها ان تؤانسني في وحدتي" "حقا؟ يال هذه المصيبة ! ومن هذه الخادمة؟" "اسمها مبروكة وليست من حينا" قال ضاحكا "مبروكة؟ ما هذا ؟ اصبح لديك خادمة اذا؟" "اسمع منذ الان لن تزورني ولن نقدر على التلاقي كل مرة في بيتي وسنبقى على هذه الحال الى ان نجد حلا" "حسنا" "والان عليك المغادرة سريعا" "حاولي ان تجدي حلا قريبا فأنا لا اصبر على رؤيتك اكثر من هذا"

اغلقت الباب وذهبت لمساعدة الخادمة في اعمال البيت.

بعد ثلاثة ايام ...جاءت رباب بالفساتين من الخياطة واتجهت الى بيت رقية فتحت الباب "مبروكة" الخادمة فقالت رباب بدهشة"اين رقية؟" "انها في الداخل من انت؟" "انا صديقتها رباب هل لي بالدخول؟" "طبعا تفضلي"

دخلت رباب الى باحة المنزل ونادت رقية فرحبت بهاو ادخلتها سريعا الى غرفة نومها فسألتها رباب"من تكون هذه التي فتحت لي الباب؟" "انها خادمتي الجديدة لقد اتى بها الي زوجي العزيز اسحاق لعنه الله" "اذا اصبح لديك خادمة تؤنسك في البيت ! اظن انك لم تعودي في حاجة لي اضحى لديك من يؤنسك بدلا عني دعيني اعود من حيث اتيت." "تعالي الى هنا يارباب واسمعيني جيدا انه ليس وقت المزاح انني في ورطة." "ورطة؟لماذا؟مابك؟" "بعد حادثة رؤية اسحاق لطاقية مصطفى في البيت اجبرني على ان يجلب لي هذه الخادمة الى البيت رغما عني بالرغم من رفضي لذلك.مدعيا انه يريد منها ان تؤنسني وتنسيني

وحدتي التي اشتكي منها دوما.انني خائفة.اظنه قد وضعها لبي في البيت لمراقبتي ولكي تخبره بما افعله وما اتحدث فيه انا واياك ومن يزورني كل يوم" "حقا؟ وهل وصل خبثه الى هذا الحد؟" "معك حق انك لا تعرفينه جيدا يصل الى هذا الحد واكثر .المهم الان علينا الا نلتقي هنا في بيتي واذا اتيت لي علينا ان نتحدث بهدوء تام وبسرية كي لا تسمع شيئا وخاصة الا نذكر مصطفى والمشكلة الاكبر انني لن التقيه بعد الان.لا ادري ماذا سافعل " "لدي حل" "حقا؟ اعتمد عليك يا حبيبتي رباب ارجوك اخبريني ما الحل؟" "مارأيك ان تلتقي بحبيبك مصطفى في بيتي كلما غادرت انا" حقا؟ اجل والله انها لفكرة جيدة .هل حقا ستفعلين ذلك؟" "طبعا لم لا؟ بيتي على ذمتك عزيزتي" "شكرا لك يا ربابتي انني احبك كثيرا" "انتبهي كي لا تسمعك.لم تخبريني باسمها" "اسمها؟" ضحكت بشدة قائلة "اسمها مبروكة" ثم تعالت ضحكاتهما من الغرفة حتى سمعتهما الخادمة وتساءلت في نفسها "يا ترى عن ماذا يتحدثان؟"

اتى يوم الثلاثاء واجتمع كل اهل الحي وكل معارف"سي عمر" في بيته احتفالا بعرس ابنه الطاهر على وفاء ابنة "سي عمر" واجتمع النساء في العلية يرقصن على اغاني الاعراس كأغنية "يا مرحبا بأولاد سيدي" وغيرها
دخلت رقية برفقة رباب ففرحت فتون برؤيتها ورحبت بها وأعطتها كرسيا للجلوس وجلست رباب بجانبها بعد ان القيا التحية على النسوة الجالسين...اتت احدى الجارات وجلست بجانب السيدة خديجة واخذت تحملق في وجه رباب ثم فقالت لها"هل عرفت هذه السيدة التي تجلس بجانب رقية من تكون؟" "لا انني لا اعرفها " "انها فتاة تقطن في بير الحجار جارتنا الجديدة هناك انها قادمة من القيروان وتعمل في حياكة الصوف عندما اتت الى هنا كانت لا تعرف احدا الا سي عمر زوجك بحكم ذهابه الى القيروان مرات عديدة فطلبت منه ان يكتري لها بيتا وفعل اما الن فقد اشتراه لها بماله الخاص وسجله باسمها" "ماذا؟ ماذا تقولين يا زينة؟ هل انت متأكدة؟" "طبعا نساء الحي اخبرنني وادرك جيدا انهن لا يكذبن اسألي رقية ان شئت انها صديقتها المقربة والمحببة الها هنا في المدينة"
في الاثناء اتى اسحاق الى البيت فلم يجد رقية ووجد الخادمة تبحث في اغراضها وتفتش غرفة تنومها فقال "مبروكة" قالت بدهشة "سيدي اسحاق هل اتيت؟" "اين رقية؟" "لقد اجتمعت مع نساء الحي في بيت سي عمر بمناسبة اعرس ابنه الطاهر" ,"جيد...اخبريني الان هل وجدت شيئا طيلة هذه الفترة في ما يخص رقية" "نعم ياسيدي...لقد عرفت انها تلتقي برجل صاحب دكان بقول في سوق "باب الجديد" واسمه مصطفى سألت عنه نساء الحي فقالوا لي ان والدعه متوفى وهو يسكن بيتا في سوق اللفة مع والدته واخوته صغار السن وهو من ينفق عليهم وعلمت ايضا انه من اقوى المناضلين في الحركة الوطنية وانه شارك منذ 10 سنوات في مظاهرة 9 افريل وشارك ايضا في كل المؤتمرات ومؤخرا سجن شهرا كاملا في السجن المدني على خلفية انعقاد مؤتمر ليلة القدر ثم افرج عنه ليعود ويمارس النضال من جديد" "وماذا عرفت ايضا؟" "عندما اتيت للعمل هنا اصبحت السيدة رقية تلتقي به في بيت صديقتها رباب كي لا اتفطن اليها وتتعلل بخروجها لشراء اغراض من السوق ثم تعود الى البيت دون غرض واحد" "وهل اعطاها شيئا ما؟ اقصد هل قدم لها فساتينا او جواهر؟ " "لا اعلم في الحقيقة فهي لم تسمح لي بالدخول لغرفة نومها فاغتنمت الفرصة الا لعدم وجودها في البيت ولم اجد شيئا" "حسنا يا مبروكة احسنت صنعا اعتبري ان مهمتك انتهت هاهي اموالك ووفقك الرب" "شكرا لك سيد اسحاق حماك الله في امان الله"
***

حين عادت من العرس ابتسمت له قائلة "لماذا لم تحضر معنا؟ كان حفلا رائعا. استمتعنا كثيرا" "كان لي شغل ولم اقدر على المجيء" ثم اقترب منها ليشتم رقبتها فقالت له بغرابة:
"اسحاق مابك؟ماذا هناك؟" فقال بسخرية "اشتقت لريحك"...فتملصت من بين ذراعيه ووقفت امام المرآة تنتزع جواهرها قطعة قطعة وهو ينظر اليها في حنق وحقد.

في الصباح ...كان سي عمر يغير ثيابه بينما تجلس خديجة قبالته غاضبة في صمت وتتجنب النظر اليه ثم قالت في حقد:"لماذا لم تخبرني بالحقيقة يا سي عمر؟" فقال بدهشة :"ماذا؟ عما تتحدثين ؟ أي حقيقة ؟" "حقيقة الحرز الذي في جيبك ...حقيقة الفتاة القيروانية التي تسكن "بير الحجار" واعطته اياه" "ماذا؟ من اخبرك بهذا؟" "لاشيء يمكنه ان يبقى سرا في مدينتنا وفي حينا ...لماذا لم تخبرني ؟ لماذا اسمع من نسوة الحي البارحة في حفلة العرس؟ لماذا اشتريت لها البيت؟ ماذا تريد منك هذه المرأة؟ هل تريد ان تجهز نفسك للزواج بها؟ هل تريد انم تسترها وتحميها على حسابي انا؟ تريد ان تجعل لي ضرة؟ بماذا قصرت معك؟ عمري كله قضيته في خدمتك ولم اشتكي يوما التعب والشقاء...لماذا؟ هل احتفلنا البارحة بعرس ابنك كي نحتفل بعد فترة بعرسكم انت؟ ماذا سيقول الناس؟ يزوج ابنه ويتزوج في نفس الشهر؟" قال "مابك ياامرأة؟ هل جننت؟ اتزوجها؟ ولماذا ذلك؟ اليس لي زوجة وامرأة مثالية اعيش واياها بسعادة في بيت جميل؟" "لا تخدعني بجميل الكلام يا سي عمر لماذا خبأت عني؟" "بصراحة لم اقدر على ان اقول لك شيئا كهذا لانك لن تتفهمي الامر.ليس لهذه الفتاة احد في الدنيا غيري انا الان وسأفعل كل شيء لاحميها واستهرا واصون شررفها من احاديث الناس وحتى لان رغبت في الزواج بها فلن يمنعني شيء عن ذلك ...اطمئني لن تكون واياك في البيت نفسه ...فبيتها على ملكها ومسجل باسمها " "انت من سجلته باسمها" ثم اجهشت بكاء واخذت تلطم وجهها بينما غادر سي عمر الغرفة دون التفوه بكلمة .

-الفصل 16-

بعد ان اقترب اعلان قيام الكيان الصهيوني المزعوم قام العرب بتشكيل جيش الانقاذ للدخول في حرب مع هذا الكيان واخراجه من الاراضي الفلسطينية ...في الاثناء انتفض رجال تونس والمغرب العربي واجتمعوا للذهاب الى فلسطين لتحريرها من المغتصب الغاشم ...وعلى الحدود المصرية تمت اعادتهم الى اوطانهم ومنعهم من الدخول لمشاركة اخوانهم العرب في حرب التحرير...كان من بينهم مصطفى الذي عاد حاقدا غاضبا بعد ان سار الى طريق فلسطين واخبرها بالامر... واخذت تضحك بشدة وفرح قال لها"اتضحكين؟ انا اقول لك منعونا من الدخول الى فلسطين وارجعونا من الحدود المصرية وانت تضحكين؟" "انني لا اضحك سخرية منكم انما فرحا لانك لن تتركني اشكر الرب" "لقد حرموني الشهادة ! حرموني ان اكون شهيدا في سبيل فلسطين وان انصر القضية العربية وقضي على هؤلاء الانجاس" "سلامتك من الموت ياعزيزي وانا؟ لمن ستتركني..؟" "انا احبك يارقية لكنني احب فلسطين ايضا واتمنى من الله الشهادة" "هل تحبها اكثر مني؟ " "لا ادري." "بلى قلها قل انك تحبذ الشهادة على البقاء بجانبي وتفضل الموت في فلسطين على الحياة برفقتي .لانت تحبها اكثر مني" "ليس هنالك مؤمن لا يتمنى الشهادة !لكن صدقيني وحده وجودك يصنع سعادتي" "سأضع لك اغنية جميلة كي نضفي قليلا من الفرح على هذا الجو القاتم..انسى الموضوع يا عزيزي وافرح لانك برفقتي الان"
وضعت صحن اغنية تقول كلماتها "زعما النار تطفاشي**ونبرا من وجعاتي"
فقال "نعم والله ناري مشتعلة ولن تنطفئ" فضحكت قائلة"سلامتك يا عزيزي" فقال لها"رقية اخبريني بصراحة اذا حصل واصبح الكيان الصهيوني في فلسطين دولة قائمة الذات هل ستوافقين على الهجرة

اليها؟" "ماذا تقول؟ كيف ساوافق على الذهاب الى وطن ليس بوطني؟ قبر والداي هنا وبيوت جيراني واصدقائي هنا واحبتي هنا...هل اترك حياتي هنا واذهب الى العيش في مكان لم اولد فيه مع اناس لا اعرفهم؟" "انا اثق بك ولكنني اخاف ان يجبرك زوجك على النذل على ذلك" "لن اطيعه صدقني ! لن افعل ذلك ثق بي ما دمت تلفظ انفاسك على هذه الارض وتخط شوارعها بقدميك فأنا لن اغادرها! لن اتركك!

بعد يوم اتى زوجها من السفر فوجدها جالسة بمفردها في غرفة الجلوس تطوي الثياب قال لها "جهزي نفسك..لقد اقترب موعد اعلان قيام دولتنا وسوف يتم نقل اليهود من جميع اصقاع العالم الى هناك ونحن سنذهب من تونسي الى هناك بالبواخر ...سنجتمع جميعا من المدينة العتيقة من حلق الوادي من باجة من سوسة ومن جربة وكل المناطق ونذهب الى ارضنا "ارض الميعاد" فقالت "وماذا عن هذه الارض؟" "هذه ليست ارض اليهود" "ولكنها بلادنا ووطننا وارضنا هذه الارض ولدنا على ترابها وعشنا فيها حياتنا هل نتركها بهذه السهولة؟ فقط لانهم وعدوننا بوطن قومي لليهود؟ ومن قال بلهم اننا نريد ذلك؟" الكل يريد هذا الا انت يارقية...مابك؟ الم نتحدث في هذا الامر وتم فصله ؟ الى متى ستبقين تزعجينني بكلامك الفارغ هذا؟ هيا بسرعة جهزي الحقائب واحضري المتاع اللازم للسفر. غدا صباحا سننطلق الى جربة .احذري ان تكرري هذه القصة على مسمعي " "لكن.." "يكفي ! لا تفوهي بكلمة ! لقد ابتلاني الرب بزوجة لا تصلح الا للنكد والبكاء. انك ستغضبين الرب بتمردك على هذه النعمة ..لقد انعم علينا الرب حين كتب لنا ان نكون ممن سيذهبون الى ارض الميعاد ويعيشون فيها...سنعود الى الارض التي تحوي مقدساتنا وانبيائنا واجدادنا" "غير صحيح انها ليست ارض اليهود.لاشيء اسمه ارض الميعاد. ولاشي يدعى اسرائيل."

"حسنا كما تشائين .لكن هل تعلمين انك ان رفضتي مرافقتي سأقضي على كل من تعرفينهم هنا؟ سأقضي على رباب وفتون وسي عمر وجاراتك العزيزات وساقضي على حبيبك بائع البقول في "سوق باب الجديد" ولن اترك له اثرا على هذه الارض اما ان احرمه الحياة او ان احرم اهله وعائلته المحببة اظن انك لا تريدين ذلك.هيا جهزي الامتعة"

ذهب وتركها مذهولة امام دناءته وقوته فذهبت لتحضر المتاع

بعد ساعة اتى مصطفى الى بيتها وهي جالسة على النافورة تنتظره باكية...فتحت له الباب والتفتت اليه دون ان تنظر له اطرقت رأسها ولم تقدر على الامساك عن البكاء

سألها مستغربا "رقية؟ لماذا طلبت مجيئي؟مابك؟لماذا تبكين؟ هل حصل لك شيء؟ هل فعل لك زوجك الدنيء شيء؟" قالت "اردت ان اخبرك سشيئا" "ماهو؟" "سأترك الحي...سأترك تونس كلها" "ماذا؟ الى اين ستذهبين؟ اين ستقيمين؟ لماذا تتركين تونس؟" "سأذهب لاسرائيل" "ماذا؟ الكيان المحتل؟ الم تقولي لي انك لن تذهبي مهما حصل ولن تتركي بيتك وجيرانك واحبتك؟" " لا اريد الذهاب لكن اسحاق اجبرني لام يعد لي خيار اخر...هددني بالموت ...هددني بقتل كل من احب هنا" "وهل له ان يفعل هذا؟ ماذا يظن نفسه؟ اتركيني افعل ما افكر فيه وسأقضي على هذا السافل" "لا لا ياعزيزي ...لا لاتلوث يداك بدمائه انه لا يستحق ...لا تفعل هذا من اجلي ...ان هذا لن يغير شيئا ...لقد وعدته ان اذهب معه وكان هذا باختياري ...انني ارفض سرقة وطن ليس وطني لكن لا بأس سأفعل ما يريده كي احميكم ...علي ان ادفع عنكم شره فهو وعصابته لن يرحموكم...ان اصابكم مكروه بسببي فلن اسامح نفسي سأرضى بقدري وربما اعود يوما الى هنا"

جلست على النافورة باكية فوثب على قدميه ووضع رأسه على ركبتيها قائلا"لا اصدق انني لن اراك مجددا....انني لا استطيع ذلك" "وانا لا اقدر على ذلك ولكن..." "ساخبرك سرا ..انهم عندما ارجعوننا من الحدود المصرية ولم يسمحوا لنا بالوصول الى فلسطين فرحت نوعا ما لانمني سأبقى هنا معك وسأحظى برؤيتك مجددا فها انت تهربين مني لماذا تفعلين بي هذا؟" وضعت يدها على شعره وقالت"عزيزي ارجوك لا تفعل بي هذا ...وحده الرب يعلم بشعوري الان. لا خيار لي علي ان احميكم.لا اطيق موتكم بسببي" "هل عرف بقصتنا؟" "اجل" "كيف وممن؟" "لا ادري لكنه على علم" "اتراها صديقتك رباب اخبرته؟" مستحيل رباب لا تفعل هذا وهي لم تتحدث اليه يوما...اسحاق له جواسيس في كل مكان ينقلون له اخباري ربما تكون الخادمة لكنك لم تأت الي ابدا عندما كانت في بيتي" "هذا النذل" "عليك ان تذهب سريعا لقد قال انه سيعود في وقت قليل ويأخذني الى جربة سنسافر من هناك" ضمها اليه بقوة حتى اعتصرها بين ذراعيه واخذ بتقبيل شعرها وجبهتها ويديها ثم تركها لبكائها وذهب دون ان يقول شيئا عدا "انتبهي الى نفسك"

وغادر ...وبينما وقفت لتذهب لتحضير المتاع طرق بابها فذهبت لفتحه واذا بها ترى جانيت اماها قالت "جانيت؟ اهلا بك ادخلي.لماذا اتيت؟وصوفي معك ايضا؟" قالت"لقد اتينا لنسافر معك انت واسحاق..هو من طالب الي ذلك كي نغادر الى جربة سويا هل حضرت المتاع؟" "انا بصدد ذلك" "هيا اسرعي الليلة سأنام عندك انا وابنتي وغدا صباحا سننطلق الى جربة " "اخبريني بصراحة ما شعورك وانت ترتحلين للسكن في منزل ليس لك ووطن ليس لك فيه احد؟" "لا اعلم لكنني سعيدة" صمتت رقية وادركت انه لا فائدة من حديثها.

في الغد...

وصلت رقية مع زوجها وجانيت وابنتها الى جربة ومفتاح بيتها في جيبها ...وصلوا الى بتي احد اصدقاء اسحاق يدعى "شمعون" فرحبت بهم زوجته ودخلوا الى البيت لينام وا ليلتهم هناك اختارت لهم زوجة شمعون غرفة في البيت ..دخلت اليها رقية ووضعت حقائبها على الارض ثم جلست على السرير بتثاقل وقد ملأ عيناها الحسرة والالم

نظر اليها قائلا "من هنا سننطلق الى اسرائيل" "ليس هنالك بلاد بهذا الاسم" "وماذا بعد؟ما بك؟هل تريدين مسح ماء وجهي ؟ اسمعي احذري ان تفوهي بكلام كهذا امام الاصدقاء ...انا سأعود عند العشاء" وضع قبعته على رأسه وغادر الغرفة فسألته مرغريت زوجة شمعون"' اسحاق هل انت خارج؟" "نعم يا عزيزتي مرغريت سأعود عند العشاء" "حسنا لا تتأخر عشاءنا سيكون لذيذا الليلة " ذهبت الى رقية وهي جالسة في حزن وصمت وقالت"عزيزتي رقية مابك؟الا تغيرين ثيابك وتأتين معي انا وجانيت لمساعدتي لتحضير العشاء؟" "بلى سأفعل" "هيا يا عزيزتي سنذهب الليلة في نزهة الى البحر وسأعرفك على جيراننا وعلى شاطئ جربة و"حومة السوق " و"حومة اليهود" ان هواءنا منعش وشوارعنا جميلة هيا اتبعيني الى المطبخ"

...

كانت الثامنة ليلا واجتمع الجميع حول طاولة العشاء ...قال شمعون:

"لقد جهز جميع يهود جربة انفسهم للرحيل سنذهب غدا في الصباح الباكر لنذهب الى وطننا بالبواخر وستنطلق عدة رحلات متتالية لايام عديدة ستأخذ كل اليهود ستكون البواخر كثيفة العدد وسيركبها الالاف "

قال اسحاق:"باذن الرب سنصل الى هناك وسيكون لكل عائلة يهودية بيت من المستوطنات التي بنتها دولتنا بالتعاون مع بريطانيا" قالت مرغريت"لا اصدق ناه سيكون لنا دولة تلم شمل شعبنا من كل اصقاع الارض بعد تشردننا وشتاتنا لالاف السنين ...ما اجمل رحمة الرب بنا"
قال اسحاق " بلى صدقي يا عزيزتي غدا سيصبح الحبم حقيقة وسنعيش مع يهود امثالنا يحبوننا ونحبهم ويشاركوننا اعيادنا ويتعلمون تعاليمنا ويصلون صلاتنا وسنكون القوة العظمى في المنطقة ...لاتنسي اننا شعب الله المختار" ضحكت وقالت "اجل معك حق"قال"اذا نخبكم يا شعب الله المختار" "نخبك"
كانت رقية تستمع اليهم صامتة مطأطأة رأسها مشمئزة مما يقولون حتى لم يعد لها رغبة بالاكل التفتت اليها مرغريت وقالت "رقية عزيزتي بماذا تفكرين؟لماذا انت شاردة الذهن؟قالت"لاشيء يا عزيزتي" وتركت الطاولة وذهبت الى سطح البيت استغرب الجميع حول الطاولة بينما اطرق اسحاق رأسه قالت مرغريت " ما بها رقية يا اسحاق؟" قال " لاشيء لقد تعبت قليلا بسبب السفر كما تعلمين العاصمة بعيدة والسفر لا يناسب رقية"
بقيت فوق السطح تنظر الى المدينة الجميلة المطلة على البحر تغني اغنية حبيبة مسيكة
"بلدي يا بلدي انا نفسي نروح بلدي**ياعزيز عيني وانا نفسي نروح بلدي"
ذهبت اليها مرغريت وقالت "رقية عزيزتي اخبريني ما سبب انزعاج:؟هل بينك وبين اسحاق شيء؟ هل تشاجرتما؟هل ازعجك بكلمة؟ انني اعرف قساوته جيدا عندما يغصب اخبريني" "لم يفعل لي شيء فقط يزعجني ترك بيتي لم انم خارجه من قبل ولو لليلة واحدة"
"لا بأس ياعزيزتي غدا سنذهب الى بيوت اجمل منها وستكون قريبة من اورشليم " قالت "ولكنها بعيدة عن تونس ...عن شجرة الياسمين والارنج والورد والتين والمشمش في بيتي ...وبعيدة عن مطبخي وسطح بيتي ونافورتي وغرفتي ونهج الباشا و"بير الحجار" وسوق الشواشين والحجامين وسوق البلاغجية وسوق اللفة وسوق النسا وساحة القصبة وباب بنات وباب سويقة وسيدي محرز وباب بحر وباب جزيرة وشارع باريس وشارع جول فيري والمرسى وحلق الوادي وماذا ساذكر ايضا؟ لو تحدثت عن مدينتي الى يوم الغد لن تنتهي الكلمات" "وهناك ستجدين في اورشليم كل مقدساتنا كجدار سليمان و...." "ارجوك اتركيني بمفردي" "كما تريدين الا ترغبين في بعض الفواكه؟" "لا اريد شيئا"
في الليل نام الجميع بعد سهرة طويلة...
طلع صباح يوم الغد والكل نائم ومع بزوغ الخيط الاول من الشمس نهضت رقية وغيرت ثوبها في هدوء وغادرت البيت حاملة حقائبها المزودة بترسانة من ذكريات من كل تفاصيل حياتها في المدينة العتيقة وخرجت من الحي متجهة نحو الحبر..هناك وجدت سفينة متجهة نحو ايطاليا فسألت رجلا يجهز نفسه لمغادرة الميناء قالت "عفوا ياسيدي" قال "تفضلي سيدتي" "هل يمكنني ان اركب هذه السفينة للذهاب الى ايطاليا؟" "لا طبعا سيدتي فكما ترين هذه سفينة بضاعة وليست للركاب" "ارجوك دعني اركب وساقدم لك ما تريد من المال" "لا يمكنني هذا ممنوع" "متى تصلون الى ايطاليا؟" "اننا متجهون الى جنوة سنصل مساء اليوم" "ارجوك خذني معكم انا ساركب ولن ازعجكم اطمئنوا" "حسنا اصعدي"
ركبت السفينة التي غادرت الميناء وبقيت تنظر الى الاراضي التونسية عن بعد والتي بدأت تتوارى خلف الضباب ومن ثم خلف شساعة المياه استيقظ اسحاق ليجد رقية ليست بجانبه على الفراش فجن واخذ يناديها بغضب وارتفع صوته في ارجاء المنزل الذي استفاق جميع من فيه ...خرج شمعون من غرفته قائلا"ما بك يا اسحاق ماذا حصل؟" "هذه الحمقاء رقية اظن انها غادرت البيت لقد هربت هربت مني"

"اين عساها تذهب علها خرجت لشراء الفطائر من العم شامير" قاطعه صارخا"لا انها تهددني دوما بأنني ان اجبرتها على الذهاب الى اسرائيل ستنتحر او تهرب لقد فعلتها الغبية لقد هزمتني."
ضرب الحائط بيده وقد اتقدت عيناه حقدا.
قالت لحفيدتها :عندما سافرت على تلك السفينة تعرفت الى قائدها الذي كان من مدينة ميلانو والذي اخبرته بقصتي فتعاطف معي وحين وصلت الى ايطاليا برفقته ساعدني على تسوية وضعيتي القانونية للاقامة هناك ثم عرض علي الزواج فقبلت ...لا ادري لحظتها ان كنت قد قبلت عن حب ام لا...لكنني فرحت عندما طلب مني ذلك لانني وجدت من يهتم لامري اخيرا ويرغب باحتوائي فوافقت من دون تفكير ومن ثم تعودت عليه لانه الوحيد الذيي يؤانسني في غربتي ...كان من درجة اجتماعية مرموقة وكان على ملكه سفن تجارية عديدة ...عشت برفقته اسعد ايام حياتي وجبنا ارجاء ايطاليا سويا حتى انجبت والدتك واصريت على تسميتها رباب على اسم صديقتي المحببة لقد سافرت والدتك برفقة ابيها الى تونس في طفولتها وعندما توفي تركت ايطاليا واتيت الى الاقامة في برلين في هذا البيت ...انه على ملكه وبإسمه...هنا كبرت والدتك وتلقت تعليمها واانني اصر على تعلمها الطبخ التونسي وازرع فيها حب الوطن دوما...لقد كنت انا من حرص على تزويجها من حاتم والدك الذي تعرفت اليه في الرابعة والعشرين من عمرها في نوزل في مدينة "الحمامات" اثناء العطلة الصيفية " "وماذا عنك انت يا جدتي؟ ماذا عن مصطفى؟" "انا؟ اما عن مفتاح بيتي فمازلت احتفظ به ولكنني نسيت الطريق اليه...واما عن عزيزي مصطفي فقد وصلني تليغرام من "سي عمر" عام 54 في ميلانو واخبرني فيه انه استشهد في العام 53 في المعارك التي دارت بين الفلاقة والفرنسيين في شعاب الجبال كم بكيته في ذلك اليوم.وكم كان يوما مظلما وقاتما واسودا." "وماذا عن زوجك الاول؟" "اسحاق؟ سمعت انه اصبح من اللاجئين العرب في المخيمات الاسرائيلية" "كيف ذلك؟الم يشمل مشروع الاستيطان اليهود العرب؟" "ان اليهود العرب انتظروا من اسرائيل ان تكون حضنا امنا لهم ووطنا يحميهم لا يذلون فيه الا انهم اضحوا لاجئين في المخيمات بدل حصولهم على مستوطنات ..لقد كانوا يعيشون في الدول العربية مبجلين مكرمين لم يذلهم احد لكنهم تعمدوا صنع وطن وتاريخ وعلم من الوهم والكذب ...وضع اليهود الالعرب عام 48 في مخيمات لاجئين وتم تجريدهم من ادنى شروط الحياة الكريمة كي يصبحوا اداة دعائية وسياسية بأيدي الحكومات العرب ضد اسرائيل حتى انهم لم يتلقوا دعما ماليا من المجتمع الدولي ...لقد تم تمويل استيعابهم من اليهود الغربيين ولم يعترف بهم دوليا ولم تتخذ الاجراءات اللازمة من الامم المتحدة لتقديم تعويضات لهم او لاسترجاع املاكهم بصورة عادلة" "الهذه الدرجة؟" "اجل كم كان اغبياء هؤلاء اليهود العرب اللذين لم يرضوا باوطانهم وسرقوا وطنا ليس على ملكهم" "وكم كان عددهم؟" "يقال انه وصل ستمائة الف مع اوائل السبعينات اما اليوم فلا اظن ان يهوديا عربيا واحدا لم يغادر الى اسرائيل المزعومة.الكل ارتحل اليها.حلق الوادي والمدينة العتيقة وسوسة وجربة وكل المدن التونسية لم يبقى فيها يهوديا واحدا يا ابنتي اعلمي انه لا كرامة للمرء دون وطن....الوطن هو الجذور والتاريخ والعز والكرامة والاهل والاصدقاء وكل شيء جميل....الوطن هو الحب ...هو العمر..هو الحقيقة...وكل ما دونه وهم...تونس وطني الذي ضم اهلي واعزائي...والذي سيضم جثتي بعد موتي"
"كم احببت هذا الوطن من كلماتك يا جدتي"
"عزيزتي تعالي فلنذهب الى الحديقة...اترين تلك الياسمينة لقد كانت يوما في بيتي العتيق في تونس...مازلت اذكر تلك الاغنية الجميلة القائلة
"ريحة البلاد يابا***ورد وياسمين يابابا*ريحة البلاد ياخويا اغلا من العين"

"احب البلاد كما لا
يحب البلاد احد
صباحا مساء
ويوم الاحد"
-الصغير ولاد حمد-

انتهى